

فهرس العدد

● دراسات وابحاث

نشاط البحوث التاريخية حديثاً في البحر الابيض المتوسط
وفي المالم .
الاسلام في بلاد المجر .

12 المهدي البوعبدلي

د. الحاج عبد الكريم يوليوس

15 جرمانوس

26 د. أحمد مطاطلة

39 د. علي عيسى

45 د. محمود قاسم

67 د. الحبيب الجنعاني

القانون والتعريب من خلال التجربة الجزائرية .

اخلاق الاوروبيين وخصائص شعوبهم .

الحلاج والقرامطة وماسينيون

من قضايا النخبة المثقفة في الاقطار العربية

● تفسير القرآن الكريم

ان هذا القرآن هداية ورحمة للانسان

صفات المتقين

73 سليمان المدني

77 سليمان المدني

81 عبد الرحمن شيبان

91 أحمد حماني

الذكرى الاربينية لوفاة الشيخ محمد الشاذلي بن القاضى

محمد الشاذلي بن القاضى العالم المصلح

● من معاضرات الملتقى :

101 د. عثمان أمين

112 عبد الحى العمراوى

فلسفة الفلسفة العربية

الفكر الاسلامى والتيارات المعاصرة



نشاط البحوث التاريخية حديثا في البحر الابيض المتوسط وفي العالم

المهدي البوعبدلي

بحاث في التاريخ ومكلف بمهمة
لدى وزارة الشؤون الدينية



مما لفت انتظار الباحثين المعاصرين في الدراسات
الاسلامية ، اهتمام نخبة من المستشرقين اضعفوا على
هذه الدراسات صبغة خاصة • ويواوها مكانا رحبا بين
الدراسات المنبثقة من مختلف الحضارات ، التي تركت
بصماتها في بلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، مثل
الحضارات اليونانية والفنيقية والرومانية •

هذا وإن كان اهتمام المستشرقين في دراساتهم للثقافة الاسلامية ، والفن المعماري
وبقية الفنون الجميلة يرجع عهده الى ما يقرب من ألف سنة ، فإن الظاهرة الجديدة
التي يشملها موضوع حديثنا الليلة ، هي كما يدل عليها عنوان المحاضرة : «نشاط البحوث
التاريخية حديثا في بلدان البحر الابيض المتوسط وفي العالم » نجد جانبا من هذا
النشاط يتجلى في المؤتمر الاول لدراسات البحر الابيض المتوسط ، وتأثير الحضارة
العربية - البربرية الذي انعقد في أفريل 1972 بجزيرة مالطة •

محاضرة القاها في المركز الثقافي الاسلامي بالعاصمة بتاريخ 19 سبتمبر 1975 •

هنا يتعين علينا أن نتبين هل هذه العلامات المشتركة ، المحتملة ، ناتجة عن عوامل متفككة صدقية ؟ ، أم هي على العكس عوامل متجانسة ، فرضت نفسها في هذا النطاق الجغرافي على الشعوب المتوالية التي استوطنته ؟

ثانياً - وهل تبدو أيضاً سمات مشتركة للحضارات المختلفة في الانتقالات بين الواحدة والأخرى وفي كفاءات تغييرها وبعبارة أخرى ، ومن ناحية ، في كيفية تألفها ، وتوسعها ، وفي قاعدتها الديموغرافية والجغرافية ، وتنقلها أحياناً ، وانحطاطها بعداء ثبت بعض مقوماتها التي إليها من الحضارات ؟ وختم دراسته بقوله : « من شأن هذه المناظرات أنها قد تعني على إيجاد عناصر من النقد العلمي والمبتودلوجيا Méthodologiques تمكن من ربط الاتصالات بين مختلف فروع الجمعية وما يضاف لهذين المؤتمرين ، مؤتمر ثالث لا يقل عنهما أهمية ، وهو الذي انعقد في السنة الماضية تحت المركز الوطني للبحث العلمي بباريس « Centre National des Recherches Scientifiques »

وكان مقر الاجتماع بالكوليج دو فرانس « Collège de France » وموضوعه : دراسة طرق البحث عن الوثائق المجهولة من مصادر تاريخ البلاد العربية في فترة ما بين القرن السادس عشر والقرن العشرين الميلاديين (Les archives et les sources inédites d'histoire des pays arabes 16^e et 20^e siècles) كان انشرفان على ذا الملتقى المنعقد في شهر أفريل 1974 الكاتب الشهير الأستاذ جاك بيرك وزميله دومنيك شوفالي أستاذ البحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي بمعهد التاريخ في جامعة الصوريون كان عدد المشاركين في ملتقى باريس هذا يربو على خمسة وثلاثين أستاذاً ، معظمهم يمثلون ويديرون أشهر الجامعات ، والمعاهد ، والمكتبات ، ومراكز الوثائق ، والمحفوظات ، ومن بينهم مديرو كثير من الجامعات بالبلاد الإسلامية كجامعات مصر ، والسودان ، وقونس ، والرباط ، وسوريا ، والعراق ولبنان وقد عين الملتقى فرعاً لبلاد المغرب العربي مقره عاصمة الجزائر ، واستندت أمانته العامة الى الاخ محمود بوعباد ، مدير المكتبة الوطنية ، وأحد أعضاء الوفد الجزائري ، المشارك في الملتقى .

قدمت في هذا الملتقى دراسات قيمة ، بين فيها أصحابها الطرق التي ينبغي أن تتبع للتنقيب عن هذه الوثائق ، واستعمال الوسائل العلمية الحديثة لتصويرها أو نقلها ، حتى يتمكن للباحثين الاستفادة منها ، كما خصص بعض الباحثين ، دراسات عن الخزائن العامة والخاصة ، وبعض المحاكم الشرعية وبصفة عامة جميع المواضيع التي توجد فيها هذه الوثائق وما يمت لها بصلة ، ومع ملاحظات الكثير منهم ، الى الصعوبات التي

بعض هؤلاء المحتفلين بهذه الذكرى لا يتفقون مع طه حسين فى جميع نظرياته ، ولكن هذا لم يمنعهم من الاعتراف بقيمة الرجل وبإنتاجه الثرى الخصب .

وقد أشار الى هذه الخلافات عميدهم Gabriellí ، فى تقديمه لكتاب التكريم فقال مخاطبا طه حسين « لقد سمع صديقك كاتب هذه السطور لنفسه - أن يختلف معك فى الرأي - فى بعض الاحيان ، سالكا - كما تعلم - طريق المعاناة والتجربة المباشرة ولكن أحدا لا يستطيع أن ينسى أنك خضت باسم حرية النقد ، أجمل معارك حياتك ، وضربت فى ذلك الصراع مثلا ، لا زال محل التقدير فى الشرق والغرب على السواء ، وهو مثل استمسكنا به بكل قوانا فى جانبنا » ، أما تحليل انتاجه الادبى والتاريخى فقد تناوله بالنقد والتحريض ، المستشرق الشهير دولا قيدا ، الذى شارك زملاءه الايطاليين فى هذا المؤتمر وقسم انتاج طه حسين الى قسمين رئيسيين :

القسم الاول : هو القسم الفنى ، المتضمن كتاباته الابتكارية ، الصادرة عن الخيال ، ثم دراساته فى النقد الادبى ، القائم على التفكير المنطقى ، والقسم الثانى ، هو الجانب التاريخى ، الذى يشمل تاريخ الادب كالشعر الجاهلى ، وما كتبه عن ادب اليونان ، وتاريخهم ، وحياتهم الفكرية والاجتماعية ، ويرى دولا قيدا أن طه حسين أسدى بعمله هذا خدمة كبرى لقراء العربية ثم ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن كتابه « على هامش السيرة » ويختم دراسته فى قسم التاريخ منوها بكتاب « الفنتة الكبرى » بأجزائه المتعددة ، الذى أظهر فيه عبقريته فى دراسة التاريخ تلك الدراسة المنهجية التى جمع فيها بين طريقتى المؤرخين القدامى ، والمؤرخين المعاصرين ، فهو يقص الحوادث على سنة القدامى ، ثم يعرض لها بالنقد والتعليق ، نقد الخبير بفنّه . المتوفرة لديه جميع المعطيات .

وبهذه النماذج أنهى القسم الاول من هذه المحاضرة ، وقبل مواصلة الحديث عن القسم الثانى الذى يشمل هذا النشاط فى بقية بعض جهات العالم كما يدل عليه عنوان المحاضرة ، نقف وقفة قصيرة عند انطباعات الباحثين المسلمين حيال هذا النشاط الفكرى سبق لنا فى هذه الدراسة ، أن المستشرقين ، اعتنوا منذ قرون فى مختلف بلدان العالم بدراسة الثقافة الاسلامية ، وأحيوا جوانب ذات بال من تراثنا ، ولم يقتصروا على احياء التراث ، ودراسة الثقافة الاسلامية فحسب ، بل خصصوا لاعمالهم هذه كراسى فى جامعاتهم ، وأنشأوا مكاتب ومطابع ومجلات ، وعقدوا لها المؤتمرات العامة والخاصة . مما هو معروف ، وقد انضم اليهم مشاركهم فى نشاطاتهم - ابتداء من

فى هذه المؤتمرات لا تقل عن مشاركة جهازة المستشرقين ، فقد شبارك فى أربعة مؤتمرات ، كان يقدم فى كل منها أهم المخطوطات من خزائنه المشهورة ، التى كانت تضاهى خزائن الدول ، وكان له الفضل حيث كونها بجهوده الخاصة ، فبذل أموالا طائلة فى اقتنائها من مختلف البلاد كما بذل جهودا جبارة فى تحقيقها وتعميم نشرها ، فعندما شارك فى مؤتمر أثينا سنة 1912 ، قدم عشرة كتب مخطوطة بعد أن صححها وحققها وستة كتب من تأليفه الخاصة ، وفى مؤتمر أثينا هذا اقترح أحمد زكى على أعضاء المؤتمر أن يتخذوا اللغة العربية من بين اللغات الرسمية للمؤتمر ، فقبل اقتراحه ، وقبل أن تتخذ الاجراءات اللازمة للتعريب ضرب المثل لذلك بنفسه ، حيث قسم دراسته التى القاهها فى المؤتمر الى قسمين : عربى وفترسى ، وقد كان موضوع دراسته له أهمية ، إذ تناول فيه البحث عن عناية العرب فى فجر تاريخهم بترجمة المؤلفات اليونانية وغيرها ، مما يدل للخلف مصداق : (الحكمة ضالة المؤمن يلقطها حيث وجدها فقد بين فى دراسته هذه ، مقادير الاموال التى كانت تبذل اذ ذاك من الملوك ، ورؤساء الدول والمنظمات العلمية ، الى المترجمين لاستحضار كتب الحكمة من اليونان) (كانت كتب الحكمة تطلق حينئذ على كتب الفلسفة والمنطق) ، كما أشار أحمد زكى فى دراسته هذه الى عناية الاندلسيين بالثقافة اليونانية وعلاقات عبد الرحمن الناصر « بالامبراطور » « رومانوس » ، وكيف أسست فى قرطبة جمعية علمية ، لتشرف على ترجمة « ديوسقوريدس » Dioscoride فى المواليد الثلاثة ، وأشار الى النسخ النادرة الباقية من هذا الكتاب

المترجم بالاندلس فى خزانة اصطمبول *

ولم يكن أحمد زكى يحضر هذه المؤتمرات منفردا ، بل كان كثيرا ما يصحب معه كبار علماء وادباء عهده ، أمثال امير الشعراء أحمد شوقى وغيره ، كما كان يقابل بمزيد الحفاوة فى جميع المؤتمرات التى حضرها . إذ جل كبار المستشرقين كانوا معه على اتصال ، فكانوا يزورون مكتبته ، ويستعينون بخبرته المثالية ويتبادلون معه الرسائل ، ولهذا كانوا يحتفون به فى مؤتمراتهم ، ويعقدون له الندوات الصحفية ، وكانت الصحف المحلية والمصرية تنوه بهذه الندوات وما يجرى فيها من بحوث *

لم يكن أحمد زكى العالم الوحيد من علماء الاسلام ، الذين كانوا يبجلون ويحتفى بهم فى مؤتمرات المستشرقين ، بل كان زميله ومواطنه أحمد تيمور باشا ، يقابل بنفس الحفاوة والتقدير ، حيث كانت خزائنه التى يضرب بها المثل ، كانت يدورها مفتوحة للمستفيدين من جميع الاجناس ، وكان هو ايضا ممن يقدمون لهذه المؤتمرات نفاس

ثم ذكر روايات أخرى عقب عليها بقوله : « ويقول جولد زيهر » ، في مقاله عن كلمة (فقه) في دائرة المعارف الاسلامية « وينبغي ألا يعطى كبير ثقة ، لما نسب لهشام ابن عروة من أنه في يوم الحرة ، حرقت لابيهِ كتب فقه ، ولا يمكن أن يتصور بحال أنه في ذلك العهد البعيد كانت توجد كتب بالمعنى الصحيح وإنما هي صحائف متفرقة ، وتوفي عروة سنة 94 هـ ، وهي التي كانت تسمى سنة الفقهاء لكثرة من مات فيها من الفقهاء » .

ثم يواصل مصطفى عبد الرازق حديثه فيقول « وبالجمله فانه اذا كان دون شيء لضبط معادل القرآن والحديث ، ومعاتنها في عهد بني أمية ، فإن التدوين في الفقه بالمعنى المحدث لم يكن الا في عهد العباسيين ، ثم يسترسل مصطفى عبد الرازق في حديثه فيقول : « هذا هو الرأي الذي كان مقرا بين الباحثين ، لكن « جولد زيهر » يذكر في المقال الذي أشرنا اليه آنفا ما يأتي : وقد اكتشف « جرفيني » بين المخطوطات القيمة ببلاد العرب الجنوبية ، مختصرا في « الفقه » اسمه (مجموعة زيد بن علي) المتوفى سنة 122 هـ - 740 م ، وهو منسوب الى مؤسس فرقة الزيدية من الشيعة وعلى ذلك تكون هذه المجموعة أقدم مجموعة في الفقه الاسلامي ، وعلى كل حال ، ينبغي أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار ، فيما يتعلق بتاريخ التأليف في الفقه الاسلامي ، وإذا صح أنه وصل إلينا من بطانة « زيد بن علي » ، وجب أن نعتز بأن أقدم ما وصل إلينا من المصنفات الفقهية هو من مؤلفات الشيعة الزيدية » .

من هذا يتبين أن مصطفى عبد الرازق رجح رواية المستشرق « جولد زيهر » المدعمة بالحجة والنصوص وختم فصله الذي عقده في البحث عن تاريخ تدوين التشريع الاسلامي بفقرتين :

الأولى قال فيها « على أن البحث الذي أثير لتعيين مركز هذا الكتاب بين المؤلفات الفقهية لم يكمل » والفقرة الثانية قال فيها « ومن أسف أن هذا البحث لم يثره مسلمون ، ولا أثير في بلاد اسلامية » . فمن كل ما ذكرناه في هذا الموضوع يتبين لنا أن مصطفى عبد الرازق لم تمنعه ثقافته الدينية المتينة التقليدية ، ولا المناصب السامية التي شغلها ولها صبغة دينية ، لم يمنعه هذا كله أن يرجح نصاب اثبته رواية مستشرق ، على روايات ساقها علماء مسلمون لهم مكانتهم مع أن هذا المستشرق كان مشهورا في الاوساط

[illegible]

أبرزت الى الوجود أهميات كتب التاريخ الاندلسى فى ما بين سنوات 1883 - 1895 ، وكان المشرفان على تحقيقها ونشرها ، المستشرقين الشهيرين كوديرا ورييسيرا ثم واصل المستشرقون الاسبان نشاطهم الذى يرجع عهده الى القرن الخامس عشر الميلادى مع المستشرق

والاب ملشور أنطونيا (1889 - 1936) Melchor Antonia

مدير مكتبة الاسكوريال الذى ألف عدة كتب عن ابن حيان المؤرخ القرطبى ، والمحدث الرحالة ابن رشيد السبتي وابن الخطيب الخ ٠٠٠ ثم الاب أسين بالاثيوس 1944 - 1871 Asin Palacios الذى كان عضوا فى عدة مجامع علمية منها المجمع العلمى العربى بدمشق Gonzales Paensá (1889 - 1949) - وايميلو Emilio Garcia Gomez الذى لا زال فى قيد الحيات ، ولو لم تكن من أعماله الهامة الا تحقيق ديوان ابن قزمان الاندلسى الذى طبعه منذ ثلاث سنوات فى ثلاثة اجزاء بعد ، تحقيق ودراسة خصص لها عشرين سنة لكفاه فخرا ، وقد اهتم هؤلاء المستشرقون مع من انضم اليهم مثل Gomez Nogalès فاكتموا بإحياء ذكرى اعلام الاندلس ، أمثال الامامين ابن حزم وابن رشد ، ولا زالت الجهود ميدولة فى هذا الميدان ، وهناك مكتبة الفاتكان التى يرجع عهدها الى القرن الخامس عشر ولها فروع كمكتبة بولونيا وناپولى Palermo

والمكتبة الامبروزيانية ، والمكتبة الميديتشيا ، والمكتبة الوطنية لمجمع العلوم فى Torino ولكل منها فهراس مشهورة عند الباحثين ، فمكتبة الفاتكان اهتم بها كثير من المستشرقين وآخرهم المستشرق دولاقيدا ، الذى تقدم لنا الحديث عنه ، فقد وضع لها فهرسا يشتمل على 388 صفحة مع مقدمة اضافية ، وثبت بأسماء المؤلفين ، ومصنفاتهم ، وتضم المكتبة اليوم ، ستين ألف مخطوط ، بين شرقى وغربى ، كما يوجد فهرس لمخطوطات المكتبة الميديتشية فى فلورنسا ، قام به أسطقان عواد السمعانى فى 492 هـ ، أما المستشرقون الايطاليون فقد ظهرت منهم نخبة ، منهم ميشال امار Michel Amari (1806 - 1887) وفضله على الدراسات الشرقية وهو تخصصه فى دراسة حضارة جزيرة صقلية ، وقد جمع موسوعة لها أهمية ، حيث جمع تصوصها العربية المتعلقة بالجغرافية والتاريخ والتراجم من خمسة وثمانين مصدرا كما اشتهرت فرنسا بمكانتها كمركز للاستشراق ، فكانت أهم خزائنها المكتبة الوطنية بباريس ، التى انشئت سنة 1654 ، وهى تحتوى الآن على ستة ملايين من الكتب ، منها سبعة آلاف مخطوط عربى ، كما يضاف الى هذه المكتبة ، مكتبات جامعة Strasbourg ، ومكتبة الجمعية الاسيوية ، ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية فى باريس ، اما أبرز مستشرقها فلا يمكن امتيازهم للمعذر

بالمؤتمرات ، وسجل الكثير منها فى تأليفه القيم « مع المخطوطات العربية » الذى أتمه سنة 1942 ، ونقل الى عدة لغات ومن جملة مستشرقى الاتحاد السوفياتى Barthold (1869 - 1930) الذى خلف ما يربو على 400 دراسة وتآليف أمثال تاريخ الاستشراق فى أوروبا وروسيا ، وكتاب الاسلام ، الذى يرى فيه ، أن القرآن لا يناهى التقدم وتاريخ بعض الدول الاسيوية ، ولا زال عمل الاستشراق متواصلا فى الاتحاد السوفياتى ، وفى السنة الماضية نشرت مجلة علمية (المدار عدد 1 يناير 1974) ان هيئة من العلماء كلغت منذ سنوات بتحضير فهرس لمخطوطات مكتبة لينينغراد البالغ عددها عشرة الاف كتابا ، وكان يشرف على هذه اللجنة الأستاذ خالدوف الاختصاصى البارز فى المخطوطات العربية ، والمرشح فى فقه اللغة ، وقد أشرف العمل على الانتهاء وهذا الفهرس يحتوى 2500 صفحة ، وقد نظم هذا الفهرس تنظيما منهجيا على أساس الموضوعات ولا يفوتنا أن نذكر أن من جملة هذه النشاطات ، أحداث « دائرة المعارف الاسلامية » ، التى سنخصصها بدراسة مستقلة ، وإلى هنا ننتهى من موضوع دراستنا التى سنعود إليها لمتتبع هذا النشاط ببقية بلدان العالم كما يدل على ذلك عنوان المحاضرة ، وكل ما نأسف عليه هو أن تحقيق كثير من هذه الكتب ، ذلك التحقيق الذى يشمل التقديم والتعليق ، كان باللغات الاجنبية ، وقد طبعت هذه الكتب منذ قرن وزيادة كموسوعة امارى فى تاريخ صقلية التى طبعت سنة 1857 بليبزيك ، ثم أعيد طبعها من جديد ، وهو عبارة عن صورة طبق الاصل ولم يتعرض الناشر الى ترجمة المقدمة ولا التعليقات ولا يخفى أن دور صقلية فى تاريخ حصار البحر الابيض المتوسط له أهمية كبرى وما قيل فى موسوعة تاريخ صقلية يقال فى كثير من نفائس المخطوطات التى حققها هؤلاء المستشرقون ، قدموا لها باللغات الاجنبية وأملنا أن يتولى تكميل هذا النقص جيلنا الصاعد من الباحثين .

على التعاليم الخلقية للقرآن الكريم . وعقب سقوط الدولة الاموية فان العباسيين قد استطاعوا ، بالارتكاز الى تعاليم القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وباستغلال المعطيات والقدرات الفكرية للشعوب الاخرى التى انضمت تحت لواء الحضارة الاسلامية ، أن ينشئوا امراطورية واسعة الامتداد ، اسهمت على الحضارة القديمة نوبا من التعاليم الخلقية الدينية لم ينقذ التراث القديم وحسب بل قلم الدليل والمثل القيمين بالاحتذاء لشعوب أوروبا الغربية التى كانت تعيش تحت حكم الكنيسة المسيحية . كما ان الشعوب الآسيوية التى كانت تعيش فى بربرية منخلقة مثل : الانراك والمغول قد تحولت الى الاسلام منشئة نتيجة لذلك جبايتها كدول وكجتمعات تسود فيها احكام الشريعة ، التى هى النظام التشريعى المرتكز على التعاليم الخلقية للقرآن الكريم . اما الشعوب الاوروبية فلم تكن نعرف آنذاك الا النظام الكنسى القائم على اصدار الاوامر التى لا يقلل النقاش فيها والمركز على الطاعة العمياء وحسب . بينما كان الاسلام ، على نقيض من ذلك ، يتمتع بتعاليم متسلحة بالفلسفات القديمة ، وكان يضع التفكير وتحكيم العقل فى موضع الصدارة .

حيث ان الاسلام لم يعترف بنظام كالنظام الكنسى ، بما يستتبعه ذلك من أوامر وتوجيهات ، بل حدد هدف الحياة بالايان ، وبالتفكير الممنوح للانسان وبتحكيم الفكر وبتنفيذ حقوق واجبات الانسان تجاه ربه ، خالق الكون، وتجاه اخوته من بنى الانسان . وبذلك فقد سما الاسلام على كافة ما سبقه من نظم دينية ، لانه يمنح البشرية المعرفة والمحبة ، دونما تمييز بسبب اللغة أو العرق ، كما يمنحها السلوى عبر الايمان الالهى .

ظهر المجريون بين جبال أورال قوما باسليين يعتمدون فى معيشتهم على صيد الحيوان والسمك ويتكلمون بلغة هى مزيج من الفنلندية والاستونية ، وقد هجروا وطنهم الاصلى منذالفي عام تقريبا مولين وجوههم شطر الجنوب الشرقى ، وبعد ان اجتازوا قلب آسيا الغربية امتزجوا بالأتراك الجواشن والباشقير بالقرب من جنوب نهر الفولغا وضفاف بحر قزوين امتزجا دام خمسمائة عام ، واخذ المجريون عنسهم فنى الزراعة والحرب ، وعلق باللغة المجرية الكثير من الالفاظ التركية القديمة خصوصا

وكانت نتيجة هذا الامتزاج بين المجريين والاجانب ان تولد جيل جديد وشعب جديد تأثر الى حد بعيد بالثقافة الفارسية ، وهناك الكثير من الالفاظ الفارسية المتعلقة بالصناعة او بالافكار الدينية مبثوثة في متن اللغة المجرية .

ولقد كانت تلك الالفاظ نتيجة تبادل تجارى بيننا وبين بلاد العجم وهذا التبادل كان منحصرا في الاسلحة والاقمشة والحلى حتى انه من المشاهد في ايامنا هذه ان الزينة والنقش وتطريز الملابس في القرى المجرية هي فارسية الاصول .

وفي نهاية القرن الثامن للميلاد شددت هذه القبائل المجرية المتزوجة وحالها واتجهت شطر الغرب حيث اقامت هناك زهاء القرن من الزمن وذلك في جنوب روسيا المعروف اليوم باسم اوكرانيا ، وفي هذه المنطقة هاجمهم قبائل البجناق وهزمتهم فانشعلوا الى نصفين :

احدهما وهو الاكبر اتجه صوب الغرب فاستقر في جبال الكربات ، اما الشطر الآخر وهو الاصغر فعاد الى الشرق وقد اختلف اثره بعض البعثات في خلال اجيال عدة بقصد الوقوف على آثاره ، ولكن هذه البعثات لم تعثر حتى اليوم على شيء .

اما الشعب المجرى فقد وصل عام 283 هـ (896 م) من جبال الكريبات الى بانونيا ، وهي المعروفة اليوم ببلاد المجر ، وهذا الشعب هو في الواقع نتجة تمازج بين المجريين الاصليين والسلافيين ، والشعب المجرى القديم ، او بالاحرى القبائل المجرية آنذاك بدأ بشن غارات على البلدان المجاورة له بقصد نهبها والاستيلاء عليها ، حتى لقد بلغ في غاراته تلك ألمانيا وإيطاليا والاندلس ، ولكي تدرك ألمانيا غارات المجريين عن بلادها ، شرعت تهمد السبيل للدخول في النصرانية ، وتحت تأثير القائد المجرى اشتفان المقدس الذى نصب نفسه ملكا على البلاد ، وفيما بعد ذلك ، بدأ المجرىون أيضا يدخلون في النصرانية افواجا ، وكان بين هذه القبائل المجرية التي نزحت من موطنها الاصلى واقامت على ضفاف الدانوب الوف من المسلمين ، وهم خليط شعوب متباينة كتجار ومزارعين اعجاب ولفار ، وقد ظلوا محافظين على شعائرهم الدينية واستوطنوا مناطق بالقرب من العاصمة بشت ، وانتشروا في السهول الزراعية واطفروا

أورد ان في حلب قد كان عدد كبير من المسلمين المجريين وهم أعضاء بعثة رسمية مكونة من أربعين مجريا مسلمين أوفدوا لدراسة الفقه الحنفي تمهيدا لتعيين قضاة وإلانة منهم في بلاد المجر . وهذا الخبر المهم يدل على أهمية المسلمين في بلادنا ، كما ذكر ياقوت أيضا ان مواطنهم في المجر تزيد على ثلاثين منطقة ، ونوضح اسماء الكثير من هذه المستقرات ان اصل سكانها من المسلمين ، ففي المجر نجد ان كلمة بوسرميني هي تحريف لكلمة مسلمان .

وحيثما عجزت موارد الدولة واصبحت في حالة يرثى لها واضطرت الحكومة لان تضمن الضرائب من فريق من الناس في مقابل ان يجيئوها بأنفسهم من المزارعين، وكانت الناقلة الاسلامية هي الملتزمة بتحصيل الضرائب للحكومة ، بل انها افترضت الحكومة مبالغ عديدة مقابل ان تحتكر هي سك النقود ، وبذا استطاع المسلمون تاسيس عدة دور لضرب المسكوكات . وقد ظلت هذه النقود قيد التداول بعد قرن من ضربها ، ويوجد منها عدد كبير في المتحف الوطني في بودابست .

وكان هؤلاء المسلمون ذوي ثقافة عالية الى جانب انهم حملوا السلاح واعتبروا انفسهم من المحاربين الاشواس . وفي عام 557 هـ ، ارسل الملك المجري جيزا الثاني خمسمائة سراسيني (يعني شرقيين) وهم المسلمون لمساعدة الامبراطور فريديك في حروبه . اما في سنة 640 للهجرة ، فقد قاسى المسلمون المجريون شدا لد ومصائب من طوفان التتار الذي غمر المجر ، وقد اختفوا من على مسرح الاحداث كجثث ، غير ان ذكراهم ظهرت في اسم أسرة اسماعيلية من اصل اسلامي تدعى سراسيني ازدهرت خلال القرن الثامن للهجرة ، وكلمة سراسيني هي اشتقاق من سراسين بمعنى الشرقي، وقد ظهرت على الكثير من شعارات الاسلحة على شكل رأس زنبي . اما في العصور الوسطى فقد كانت كلمة سراسين تعني عامة مسلمي اسبانيا .

وبعد انتهاء القرون الوسطى بدأ فصل جديد في التاريخ وبعد ان استولى العثمانيون على مصر اتجه السلطان سليمان القانوني صوب بلاد المجر ، واستولى على جزء كبير منها وعلى عاصمتها بودا او « بودين » واتخذ الاتراك منها ثكنة عسكرية مهمة . ولقد ازدهرت الثقافة الاسلامية التركية في بلادنا في غضون قرن ونصف وشيدت مساجد رحبة ومدارس علمية درست فيها الشريعة الاسلامية ، واعتنق عدد غير قليل مسن

هو الوحيد في أوروبا الذي يحتفظ بين جدرانہ بقبر احد رؤساء الطريقة البكتاشية وهو جول بابا *

ولقد كان من المقدر للبوسنياكى دوريتش حلمى ان يواصل نشر تعاليم الاسلام بنجاح لولا وقوع الاحداث التى حالت بينه وبين ذلك * ففى عام 1326 هـ ، اقدمت امبراطورية النمسا - المجر على ضم بلاد البوسنة اليها ، الامر الذى اعتبره الاتراك عملا عدوانيا ضدهم ، واقدموا فى استانبول على مقاطعة المنتوجات والسلع المجرية * اما السلطات المجرية فقد اقدمت ، فى محاولة لتخفيف حدة السلوك العدائى التركى ، على الاعتراف بعبد اللطيف الذى كان يعمل محاضرا منذ سنوات فى جامعة بودابست ، بصفته اماما رسميا للمسلمين فى المجر * وهذا الامر اوهن من عود المجموعة الاسلامية الصغيرة * وكثيرون منهم لم يعرفوا من هو الامام بالضبط : اهو عبد اللطيف التركى ام هو دوريتش حلمى البوسنياكى ؟ اما واقع الحال آنذاك فقد كان يبين بان لدوريتش حلمى حوالى 300 من الاتباع من بوسنيك ومجريين ، ممن كانوا يؤدون الصلوات بانتظام ويتقيدون باحكام الشريعة * اما عبد اللطيف التركى ، الذى اعترف به اماما رسميا ، فلم يكن له اتباع البتة * ولقد ازدادت حدة ذلك الانقسام المؤسف ، وخلال ذلك فان القسم الاكبر من البوسنيك قد هاجروا من المجر الى يوغوسلافيا نتيجة للازمة الاقتصادية العالمية آنذاك ، وهكذا لم يتبق من المسلمين فى بودابست الا القليل القليل *

وفى مطلع عام 1349 هـ ، وصل الى بودابست ممثل الطائفة الاحمدية فى الهند المسمى عياض خان * وحيث انه كان ملما باللغة المجرية ، فقد شرع فى نشر تعاليم الطائفة الاحمدية الخارجة عن تعاليم الاسلام الصحيحة *

وفى هذا المجال اذكر باننى قد عملت مدرسا فى جامعة سنتينيكا تان (فى البنغال) وذلك ما بين 1348 - 1351 للهجرة ، حيث كنت استاذا محاضرا فى العلوم الاسلامية * وهكذا فقد توجب على ان اتناول الطائفة الاحمدية كذلك * ولقد تحدثت فيها عن نشوء الاحمدية : ففى عام 1307 هـ ، وفى بلدة كاديان الواقعة فى شمال الهند فان الملك الصغير المسمى ميرزا غلام احمد قد فاجأ المحيطين به هناك بأنه قد انعم عليه

[illegible]

باستغلال ذلك الزعم الكاذب ، وهو المتعلق برحلة المسيح المزعومة الى الهند في سنى
شبابه ، ولكن مع تحويل التبشير بتعاليمه الى فترة ما بعد وفاته .

اما فيما يتعلق بالقبر القائم في سرينيفار فقد تأكد لى بعد دراسة وتحيص
اسلوب البناء فيه ، انه يرجع فى الغالب الى القرن العاشر للهجرة ، وان الاقرب
الى التصديق كونه يشتمل على جثمان أحد الاولياء المسلمين .

وبالطبع فان الاحمدين لم يستقبلوا براهينى العلمية تلك بطيبة خاطر ، حيث
انهم اصرروا على ايمانهم بتلك المعجزات المزعومة - بدلا من تصديق الحقائق العلمية
الموضوعية - ، وهى « المعجزات » التى قام ميرزا غلام أحمد بتنفيذها مستخدما مراهمه
ولصناته التى اودت بحياة العديد من اعدائه الى مهاوى الردى .

ولذا فلم يكن غريبا اننى استقبلت النشاط التبشيرى لعياط خان فى بودابست
بشعور من الشكوك ، وذلك على الرغم من اننى كنت على سابق علم بأن الاحمدين
يقومون بنشاطات تبشيرية فى مختلف انحاء العالم . وفى أوروبا وأميركا قاموا بانشاء
جوامع عديدة كما ان الكثير من الشخصيات البارزة قد آمنت بتعاليمهم ، بعد ان دخلوا
فى صغوف هذه الطائفة الاسلامية الغريبة الطابع .

كما ان عياط خان نفسه قد لجأ الى اسلوب جد غريب للتمهيد لنشاطه التبشيرى فى
بودابست : ففى احد الايام وعند الظهيرة ، حيث تكون الحركة على اشدّها ، وقف فى
احدى تقاطعات احد الشوارع الكبيرة والشديدة الحركة ثم سجد وشرع فى الصلاة .
ونتيجة لذلك انشلت حركة السير ، وجاء احد رجال الشرطة وطلب اليه ابراز أوراق
اثبات شخصيته ، كقدمة لايقافه . وعندئذ شرع عياط خان فى مناقشة مع الشرطى
ذاك أخذا عليه ازعاجه وهو يؤدى صلاته . ولقد تجمع حولهما حشد كبير من الناس ،
وهو حشد كان متعاطفا لا مع الشرطى ، وانما مع الهندى المتبر ، المعتم بعمامة لافتة للنظر .
ولقد تطلب امر تقريق الجمهور المحتشد جهدا كبيرا ، ورغم ذلك فان الكثير من الناس قد
رافقوا عياط خان الى مركز الشرطة ، حيث جرى تغريم عياط خان بمبلغ من المال جراء
اخلاله بالامن ، ولقد صدق الكثير من الناس كونه كان على حق ، واقدما بمنتهى سلامة
النية والطوية على الدخول فى الطائفة الاحمدية ، وذلك على يقين منهم بانهم انما قد

القانون والتعريب من خلال التجربة الجزائرية (1)

د. أحمد مطاطلة

الأمير العام
لجمعية المحققين الجزائريين

من مميزات المناهج الحديثة في الدراسات والبحوث العلمية هي أنها تقرب بين المفاهيم وتكون بينها روابط تجعلها تتجانس أحيانا وأحيانا تتمازج إلى درجة تتضاءل معها الفروق وتتلاشى لا سيما إذا كانت هذه الدراسات تجري حول مواضيع تسير نحو هدف مشترك كموضوع القانون والتعريب اللذين يتكاملان شكلا ومضمونا .
إلا أنه لا يتصور أن يصدر قانون في قطر عربي دون أن يكون مصاغاً في الفاظ عربية أو موضوعاً في شكل

معرب على الأقل . غير أن هذا ليس هو المقصود بذاته ولكن المقصود كفاية هو نقطة الانطلاق التي يلتقي فيها القانون والتعريب كمفهوين ثقافيين .

(1) عرض ألقاه في مؤتمر المحققين العرب المنعقد أخيراً في بغداد

فى ميدان القانون عن طريق نقل ذلك من النجاج الاجنبى الصادر باللفات الانكليزية او الالمانية او الروسية او غيرها مما يعطى نفسا جديدا للانطلاقة العربية فى مجال النهوض بالدراسات القانونية وحنى فى وضع واصدار التشريعات ، فى القانون الدولى مثلا يمكن للمؤسسات القانونية العربية ان تحرز على امكانيات كبيرة للمساهمة فى تطوير البحوث القانونية المتعلقة بالفضاء وقانون البحار واتفاقيات ومعاهدات السلام واستغلال الثروات الطبيعية سواء كانت فى طبقات الارض او على سطحها او فى اعماق المحيطات وحنى فى الميادين الاجتماعية كاتفاقيات التعاون فى مكافحة الاجرام وحوادث الطيران وغيرها ومسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية والجوية ، لا سيما وقد اُنشئت مؤسسات متعددة فى هئيات علمية تعمل على ايجاد المقابل من الافاظ العربية لاسماء المخترعات العلمية الحديثة باللفات الاجنبية كجمام اللغة العربية ومكتب التعريب التابع للجامعة العربية والنمى نأمل ان تتطور الى اكاىيمية علوم عربية جامعة تنفع بنتائجها كل الاقطار العربية فى مشرفها ومغربها . فالتعريب بهذا المعنى وبالنسبة للمشرق العربى اذن هو مسألة ثقافية تبحث فى نطاق حضارى وتحل فى نطاق الدور الذى تؤديه الامة العربية فى المساهمة الفعلية لانشاء ثقافة قانونية قائمة على قاعدة فكرية عربية اصيلة .

اما فى المغرب العربى وخاصة فى الجزائر فان التعريب يتخذ شكلا مغايرا ، لانه اكثر من مسألة ثقافية التى قد توجد حدى فى الدول المتقدمة صناعيا كالاتحاد السوفيتى او الصين أو اليابان بل انه مسألة كيان ومسألة مصير شعب وبالتالى فهو مسألة سياسية تقوم على أساس يتعلق بسيادة لغة محتل اجنبى سابق فى بلد اصبح مستقلا ذا سيادة ولهذا لا اكون مبالغا اذا قلت ان التعريب فى الجزائر عمل من اعمال السيادة القومية الذى لا يقل عن اى عمل آخر من الاعمال التى تحققت فى ميدان التحرر الاقتصادى والسياسى ، وانه ثورة فى الثقافة لابد من النهوض بها والا بقيت بلادنا خاضعة للتنمية الثقافية الفرنسية لا سيما وان التاريخ ما زال يحتفظ لنا بذكرات اليمه عن الاستعمار وطريقة المحتلين فى محاربة اللغة العربية .

التي كان لها شأن بعيد في نقل مآثر الحضارات السابقة وتطويرها وتهذيبها لتصبح قاعدة سليمة لانبعاث الحضارة الحديثة .

ان النظام الاستعماري الفرنسي الذي كان مبعثه الطمع والشراسة والمقدد العنصري الموروث عن الحروب الصليبية قد اودى بكل معالم الشخصية العربية في الادارة والثقافة والقضاء والسياسة منذ ان خضعت الامور الى مقاليد المعمرين في الجزائر . وكان السلاح الاول في هذا هو العنف والاضطهاد ، العنف في تخريب المعاهد والمدارس وتحويل المساجد الى كنائس والاضطهاد بالاستيلاء على الاموال والقضاء على الحقوق والحريات واخضاع السكان الجزائريين الى نظام عنصري اشهر باسم (لانديجينا) والذي قسم البلاد الى مناطق خاضعة لنظام عسكري ومناطق خاضعة لنظام مختلط يخضع فيها الاهالي او كما يسميهم هذا القانون Les indigènes لرقابة دائمة مسن سلطات الاحتلال ، فمنع الجزائريون من التعليم بلغتهم العربية وقعدت البلاد ذلك الازدهار الثقافي الذي كان منتشرا في المدارس والمعاهد والجامعات التي كانت موجودة في مدن تلمسان ووهران وبجاية وقسنطينة حسب اعتراف الفرنسيين أنفسهم ، فهذا المؤرخ الفرنسي بولارد Poulard في كتابه التعليم في الجزائر قبل سنة 1830 L'enseignement en Algérie avant 1830 يقول : « كتاب الجزائر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مراكز ثقافية مزدهرة كانت تدرس فيها الفلسفة والآداب والعلوم المختلفة من طب وفلك وطبيعة وسياسة وغيرها من طرف اسانذة لامعين » . وقال السيناتور كومب في مجلس الشيوخ الفرنسي : « ان الجزائر كان فيها عند احتلالنا لها اكثر من ألف معهد ثانوي وعالي » ، ويضيف فالسين استرهازي Walsin Esthazy في مجلة التاريخ الحديث والمعاصر « عدد يوليو - ديسمبر 1955 تحت عنوان : الحالة الثقافية والاخلاقية في الجزائر سنة 1830 » .

ان نسبة الامية في الجزائر سنة 1830 كانت اقل منها في فرنسا بالنسبة لتعداد السكان أي انها كانت أعلى في فرنسا » . ويؤكد بولارد المذكور آنفا : « ان احتلال فرنسا للجزائر احدث فوضى عامة في ذلك العهد بين العلماء والفكرين وكثير منهم هاجروا البلاد » .

شعبي الجزائر مسلم وإلى الصروبة ينتسب
من قبال حساد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجاً له رام المجال من الطلب

وكان يقول في الرد على دعاة ادماج الجزائر في فرنسا : « الجزائر لم تكن فرنسا
وليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تكون فرنسا » . وأعلن شعاره
المشهور « الجزائر وطننا والإسلام ديننا والعربية لغتنا » .

ومآثر الجزائريين في الكفاح من أجل اللغة العربية معروفة في كثير من أشعارهم
وأدبهم كالشعراء محمد العيد وأحمد سحنون ومفدى زكرياء وغيرهم ، وقد نال الشهادة
عدد من المكافحين من أجل اللغة العربية كالأديب أحمد رضا حوحو والشيخ العربي
التبسي مدير معهد عبد الحميد بن باديس سابقاً ونائب رئيس جمعية العلماء المسلمين
الجزائريين والشيخ العدوي وأحمد بوشمال الذين اغتالهم الجيش الفرنسي في بداية
الثورة التحريرية وعشرات من أمثالهم خلال استمرار هذه الثورة . لكن ورغم هذا
القمع الوحشي فإن إرادة الكفاح لم تضعف ووجدت اللغة العربية دعاة لها وإبناء أوفياء
أخلصوا لها وضحووا من أجلها فنهضوا بها في المدارس الحرة التي كان الشعب يبنها
بماله حتى تجاوز عدد المدارس الحرة الابتدائية وثانوية المائتين - وقد عمدت السلطات
الاستعمارية إلى غلقها بمجرد اندلاع الثورة التحريرية في فاتح نوفمبر 1594 ، وأحالت
بعضها إلى محتشدات أو مراكز للجيش الاستعماري الذي أوفدته فرنسا لمحاولة قمع
الثورة المسلحة بقيادة جيش وجبهة التحرير . لكن هذا الأسلوب من الاضطهاد
والعنف باء بالفشل إذ تصدى له الشعب بوعيه الثوري تحت قيادة جبهة التحرير
برد فعل قوي وأخذ الناس يزدادون إيماناً بلغتهم العربية واقبلوا على تعلمها وتحولت
السجون والمحتشدات ومراكز التجمع إلى شبه مدارس سرية لتعليم اللغة العربية .

والأهم من هذا هو أن القيادة الثورية كانت تعد لجنود جيش التحرير الذين عطبوا
في الحرب وأصبحوا غير قادرين على مواصلة الكفاح المسلح مراكز خاصة يتعلمون
فيها الدروس بالعربية فارتفع عدد المتعلمين من الأميين من الجنود وتمكنت الدولة

4 - فتح مجموعة من الاقسام المعربة بالمدارس الاعدادية قى سنة 1969 استجابة
للحاجة المتزايدة الى هذا النوع من الاقسام، أعنى الصفوف •

5 - الشروع فى تعريب الفلسفة والمواد الاجتماعية ماعدا الجغرافيا فى كل المراحل
نظرا لاهمية هذه المواد فى تكوين المواطن واتصالها المباشر بالجوانب الروحية
والعقائدية •

6 - تعريب الجغرافية والعلوم - دراسة الهيئة - فى المرحلة الابتدائية •

7 - جعل اللغة العربية مادة اجبارية فى جميع المراحل وفى جميع الامتحانات
المدرسية والمهنية •

كانت هذه هى المراحل الاولى من التعريب المدرسى، اما المرحلة الثانية فبدأت
باصلاح النظام التعليم الرامى الى تعريب المدرسة الجزائرية مع بداية المخطط الرابعى
الاول (70 - 71)، وتنتهى بنهاية سنة 1974 • حيث عكف المسؤولون فى وزارة
التعليم الابتدائى والثانوى على دراسة الوضعية التربوية لاول مرة فى اطار المخطط
العام للتنمية - دراسة شاملة اسفرت فى النهاية عن اصدار مجموعة من القرارات
متتالية تقضى :

1 - تعريب السنة الرابعة من التعليم الابتدائى •

2 - تعريب ثلث اقسام السنثى (الخامسة والسادسة) من التعليم الابتدائى •

3 - تعريب ثلث الاقسام المفتوحة فى السنة الاولى من التعليم المتوسط (الاعدادى)

فى كامل القطر •

4 - تعريب ثلث الاقسام العلمية المفتوحة فى السنة الاولى من التعليم الثانوى

فى كامل القطر •

5 - تعريب جميع الشعب الادبية المفتوحة فى بداية التعليم الثانوى •

6 - تعريب الجغرافيا فى المرحلة المتوسطة (تدريجيا) •

7 - تدعيم حصص اللغة العربية فى جميع المستويات وفى جميع أنواع التعليم •

وقد استعانت الدولة الجزائرية في هذا باسئاعارة اساتذة من مختلف الاقطار العربية الشقيقة . وقد ساهم هؤلاء الاساتذة الممارون الى الجزائر من جامعاتهم بقسط كبير في تعريب التعليم الجامعي بالجامعات الثلاث الكائنة بالجزائر العاصمة وقسنطينة وهران . وطبقا لقرار مؤرخ في 4 رجب سنة 1391 ، الموافق لـ 25 أغسطس سنة 1971 التقاضى بضبط تدابير التعريب في مؤسسات التعليم العالي . فان اللغة العربية تقرر ادراجها ابتداء من السنة الجامعية 1971 - 1972 في جميع برامج الدروس العليا باللغسات الاجنبية المقررة في مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي للطلبة غير المربين وحدد العدد الاجمالي (م 4) من ساعات الدروس والاعمال التطبيقية بثلاثمائة (300) ساعة في كل سنة مقررة وعدم النجاح في المستوى المطلوب لمعرفة اللغة العربية يحرم الطالب غير المرب من تسلم شهادته الجامعية حتى ينجح في مادة اللغة العربية . ولم يعف من هذا الا الطلبة الحاصلون على :

1 - دبلوم اللغة العربية من مستوى مساو على الاقل للشهادة الابتدائية .

2 - دبلوم لقسم مزدوج اللغة يشتمل على اختبار للغة العربية يساوى مستواه على الاقل مستوى أهلية التعليم العام .

هذا عن التعريب في التعليم بصفة عامة . اما عن التعريب في الادارة . فان تعليم اللغة العربية للموظفين أصبح اجباريا منذ صدور المرسوم المؤرخ في أبريل سنة 1968 المتعلق بتطبيق الامر رقم 68 - 92 المؤرخ في 26 أبريل سنة 1968 ، والقاضى باجبارية معرفة اللغة الوطنية على الموظفين لا سيما المادة الاولى منه والتي تنص في الفقرة الاولى على : ان الدخول الى اية وظيفة دائمة في ادارات الدولة والجامعات المحلية والمؤسسات والهيئات العمومية يتوقف على معرفة اللغة العربية ابتداء من أول يناير سنة 1971 .

كما تقرر انشاء مكاتب للترجمة الى اللغة العربية في مختلف الوزارات طبسقا لمرسوم صدر في 8 فبراير سنة 1969 وقد نصت المادة الاولى منه على ما يلي : يحدث في كل وزارة مكتب للترجمة ، يكلف بالترجمة الكتابية والشفوية الى اللغة العربية للوثائق والمراسلات والنصوص الرسمية ومشاريع النصوص ذات الصبغة التشريعية والتنظيمية .

ومما يزيد في تدعيم قضية التعريب ان القرى النموذجية التى تبنى للفلاحين فى نطاق الثورة الزراعية - وعددها سيصل الى الف قرية - لم يكتب عليها حرف واحد باللغة الفرنسية لا فى الشوارع ولا فى المصالح الادارية والمرافق العامة ولا فى المحلات التجارية .

ان هذا العمل الكبير فى نطاق المحاولة الجزائرية للتعريب يعد دليلا صادقا على جدية الاتجاه الثورى العربى الذى تبنته السلطة الثورية بقيادة الاخ هواري بومدين ، وعلى ارادة العمل المخلص من اجل ارساء قواعد السيادة الوطنية من خلال استرجاع الذاتية العربية للبلاد والقضاء على الحواجز التى اقامها الاستعمار الفرنسى بين الشعب الجزائرى وبين أشقائه العرب طيلة مائة وثلاثين سنة.

ومن المهم أن نفلن الى أن الاوروبيين وغيرهم يستمدون دائما لمواجهة العرب بدراسة اخلاقهم وامزجتهم وميولهم مسبقا . واننا نحن العرب مازلنا مقصرين فى اجراء الدراسات عليهم لنسبر اغوارهم ونعرف ما يكمن وراء كل كلمة يقولونها او كل حرف يخطونه .

وبلاحظ أولا وقبل كل شىء ان اهتمام الدول القومية بهذا الامر كان موجها الى البحث عن شخصيات الدول الاخرى التى تقوم معها مناقشات سياسية او عسكرية او اقتصادية . فمنذ بداية القرن التاسع عشر اهتم الالمان بدراسة الخصائص القومية الانجليزية فيما يرى بروفيسور جنزبرج استاذ علم الاجتماع فى جامعة لندن فى خطابه الافتتاحى امام جمعية علم النفس البريطانية فى افريل عام 1941 بمناسبة انشاء شعبة علم النفس الاجتماعى فى هذه الجمعية . وما جاء فى الخطاب المشار اليه ان الكتاب الالمان الاوائل وجدوا فى النمو العضوى البطىء لانجلترا وفى استقلالها القائم على اسس مثبتة نموذجا يحتذى فى الصراع الالماني من أجل إعادة بناء المانيا . كما ارجعوا الاخلاق الانجليزية الى اصل عنصرى جرمانى قديم من شمالى أوروبا . واتجه الكتاب الالمان آخر الامر الى تحديد الاخلاق الانجليزية بالمادية المصنعة والسعى الحثيث الى القوة والربح ، والمهارة فى اخفاء الميول الانانية تحت معطف من حب الانسانية على اساس اخلاقى ودينى . وقد تعرضت هذه الاوصاف للتحليل وكثرة التردد خلال الحرب العالمية الاولى بين عامى 1914 - 1918 التى واجه الالمان والانجليز اثناءها كل منهم الآخر . وما ورد فى كتابات الالمان عن الانجليز فى هذه الفترة ونخص من الذين كتبوا « ليفين شونكج » ، ان المظاهر بغير ما يجول فى النفس صعة عميقة الجذور فى الخلق الانجليزى . وكذلك « ديبلوس » الذى ذكر فى كتابه عن انجلترا عام 1930 أن الانجليز يتميزون بالعقل والحكمة والرجولة والتوازن النفسى وان لم يخلوا من شغف بالقوة .

وتقابل هذه الدراسة دراسات أخرى عن خصائص الالمان قام بها باحثون فرنسيون . وها هو « فوييه » الفرنسى الذى يرى أن الصفات الطيبة لشعب من الشعوب كثيرا ما تكون مستترة . وان الذى يظهر على السطح منها لا يعدو أن يكون الصفات السيئة

ولنبحث اثر هذه العقلية الانجليزية ودورها فى السياسة الدولية : نلاحظ هنا أن
القرارات الانجليزية تنسم بأنها محاولات متتدة حذرة تهدف الى حل جزء من المشكلة
فاذا تم ذلك اتجهت الى حل جزء آخر وهكذا . وتتجنب هذه العملية التحديد القانونى
الدقيق كما انها لا تثق بما يسمى الحلول النهائية أو التخطيط بعيد المدى . ومن رأى
بعض المفكرين الفرنسيين أن هذه الصفات الانجليزية هى العقبة الكؤود فى سبيل أى
تعاون فرنسى انجليزى . وفى مقابل هذه العادة الانجليزية فى التفكير التى تفضل أن
تحتصر نفسها دائما فى الشئ المباشر والمتعين بالذات أمامها ، نجد العقلية الفرنسية
تتجه دائما الى العام لا الى الخاص . وتنوق الى الحلول النهائية الواضحة المعالم والتى
لا تقبل أى تاويل والتوافقة منطقياً من جميع الوجوه .

والصعوبة الكبرى التى تعترض الباحثين فى شخصية أمة من الامم أو فى خصائصها
القومية منشأها تنوع الجماعات القومية داخل المجتمع الواحد وافتقار بعضها الى
التجانس فيما بينها . فأجزاء كل أمة متعددة . ومهما قيل عن تجانس الانجليز مثلا
فإن تقسيمات بريطانيا الاقليمية الى انجلترا ، اسكتلندا ، ويار ، ايرلندا تجعل كثيرا
من الفروق فى التفكير واضحة بين السكان . وكذلك نفس الظاهرة عند الفرنسيين
فالبيكاردي يختلف عن الفاسكون والنورماندى بخلاف عن السافوار . ومحاولات
التوحيد بين الجماعات الاقليمية هى الشغل الشاغل للدول الاوروبية . الا اذا كان الامر
يتعلق بالمستعمرات الاوروبية حيث نجد المستعمرين يعمقون هوة الاختلاف بين
الجماعات واقسام المجتمع فى البلاد التى يستعمرونها .

ولا يخفف من حدة الفروق الاقليمية فى المجتمع الواحد الا وسائل المواصلات
الحديثة السريعة التى تربط بين الاجزاء مع العناية الخاصة بتوحيد اللغة المسووعة
فى الاذاعة ولهجة النطق بها وذلك عن طريق معاهد اللسانيات وخلق علاقات ثقافية
واقتصادية تأسيسية أى لا غنى عنها بين أجزاء الوطن الواحد والقضاء عن طريق التعليم
والتربية القومية على ما قد يوجد من فروق بين السكان .

وأهم الآراء فى موضوع الشخصية العامة للامة أو عقليتها أو خصائصها ما ذهب
اليه « س » ف - ستاوت « فى كتابه : علم النفس الاجتماعى ويتلخص فى أن هذه

استيراده من هذا الطعام وكذلك يمكن أن نربط بين موقف أى شعب من الاجانب
بكثرة ما عاناه منهم فى تاريخه القديم .

ولابد لنا أن نطرح جانباً الفكرة القائلة بأن هناك خصائص محتومة لا مفر منها
على الشرقيين أو الغربيين أو على الاوروبيين أو الافريقيين ، لا سبيل الى تغييرها . وهذا
البحث اختلط بأراء باطلة قصد من ورائها استغلال شعوبنا العربية والافريقية .
فالتقول مثلاً بأن الشعوب الافريقية ترفض التقدم ولا تعرف ما عندها من خيرات وإن من
حق الاوروبى أن يستعمرها لىخدم أهلها ويرقى بهم الى ما لم يستطيعوا تحقيقه من
تقدم ، هذا القول يخفى وراءه الميول الاستعمارية ويمنح الاوروبى أو المستعمر حقوقاً
ليست له . وفى التاريخ المعاصر للشعوب الشرقية والافريقية ما يثبت أنها جادة
وقادرة على النهوض وملاحقة الحضارة لو تركت حرة التصرف فى شؤونها الخاصة .
ويطول بنا المقام لو أردنا أن نذكر هؤلاء المفكرين الاوروبيين المحرفين الذين خططوا
للمستعمرين فى الماضى وقدموا اليهم التبرير العقبى لاتقضاضهم على الشعوب
المستضعفة . ويكفى أن توالى الاحداث فى القرن العشرين تثبت ان كل فلسفاتهم باطلة
وإن الشعوب التى تخلصت من نير الاستعباد والظلمة تقف الآن على ارض صلبة
تعلن للعالم خصائصها الحقيقية .

وأود قبل أن اختم هذا المقال أن أوجه الانظار الى ضرورة أن يدرس العرب
الاوروبيين ولو اقتضى هذا العمل زمناً طويلاً فقد أشبعونا دراسات أطلقوا عليها مرة
« الاستشراق » ومرة أخرى البحث من أجل البحث !! وكان من نتائجها انهم فهمونا
دون أن نفهمهم وكفانا أن نذهب الى أوروبا للتخصص فى اللغة العربية وفقهها أو فى
شعر الفردق أو الدين الاسلامى . ان علينا أن نهجم على دراسة فلاسفة أوروبا
وفلاحها وعمالهم لنعرف ماخفى من خصائصهم القومية بدلا من أن نزيد من حصيلتهم
من خصائصنا .

وان لم يكشف بوضوح عن تلك العناصر اليونانية والفارسية التي امتزجت في المذهب الصوفي للحلاج مع أنها هي العناصر الجوهرية التي يدور حولها مذهبه . فعلىنا إذن أن نبرز هذه العناصر التي تجدها في كتابات ماسينيون وفي كتابات غيره عن الحلاج ممن كانوا أقرب الى العصر الذي عاش فيه هذا الرجل . غير أنه ينبغي ، قبل ذلك أن نبين انه كان أشد الناس تأثراً بفلسفة القرامطة وهي فلسفة باطنية في جوهرها .

ولا بأس من أن نشير إشارة موجزة الى تاريخ حياة هذا الرجل بناء على ما نقل لنا رواية عن ابنه وعن الآخرين الذين ترجموا له . لقد ولد الحسن بن منصور الحلاج في البيضاء سنة 244 هـ ، ثم أقام في واسط التي تقع بين بغداد والبصرة . فلما قامت ثورة الزنج ترك واسط في سنة 260 هـ وذهب الى الاهواز لكي يتعلم على سهل بن عبد الله التستوي مدة سنتين . ثم سار الى بغداد على قدميه وهو في الثامنة عشرة من عمره ماراً بالبصرة ، أي في الوقت الذي كانت ثورة الزنج تجتاح هذه المنطقة . وفي بغداد لقي بعض الصوفية ، كعمرو بن عثمان المكي والجنيد ، ثم تزوج بابنة أبي يعقوب الاقطع . وقد زار الجنيد بن محمد عدة مرات . ثم سافر الى مكة فاقام بها سنة . وعندما رجع الى بغداد عاد ومعه جماعة قال انهم من فقراء الصوفية . ويقال انه ذهب الى الجنيد ووجه اليه سؤالاً لم يجبه الجنيد عليه . ولهذا السؤال مفزاه لانه يرتبط ارتباطاً شديداً بمذهبه الصوفي وهو : « ما الذي يصد الخلق عن رسوم الطبيعة » . ويمكن فهم ماذا كان يعنيه الحلاج بسؤاله هذا على ضوء التأثير المزدكي والدعوة الى تأويل العبارات على طريقة القرامطة بأنها مجرد قواعد تنظيمية للحياة الاجتماعية ورموز يمكن تأويلها . كذلك « روى أن الحلاج مر يوماً على الجنيد فقال له : أنا الحق . فقال له الجنيد : انت بالحق . أية خشية تلمد ؟ فتحقق فيه ما قال الجنيد انه صلب بعد ذلك » (1) . ويميل ماسينيون الى أن الحلاج اختلف مع صوفي آخر ، وهو عمرو بن عثمان المكي بسبب زواجه من ابنة أبي يعقوب الاقطع ، فكان ذلك سبب القطيعة بينهما . لكن صاحب كتاب الفرق بين الفرق يرى رأياً آخر ، وهو ان ابن عثمان المكي انما تبرأ من الحلاج لانه كان يقول : « يمكنني أن أقول مثل القرآن » (2) ، وكان الحلاج يعنى ما يقول ، فقد ألف كتابه « الطواسين » يعارض به القرآن . وهذا هو ما أشار اليه محيي الدين بن عربي فيما بعد ، أكثر من مرة في كتابه « الفتوحات المكية » .

(1) الفرق بين الفرق للبغدادي ص 262 .

(2) المصدر السابق نفس الصفحة .

التي يستحوذ فيها الصوفي على الذات الالهية في أعماق نفسه دون أن تتعنى شخصيته وأفعاله الارادية . وتلك مرحلة أسمى من مرحلة العبادة الشرعية والوجد الصوفي (5) . أما ابن الحلاج فيقول عن أبيه انه اشترى عمارة في بغداد وبنى لنفسه منزلا وأخذ يعظ الناس بمذهب كان لا يعرف عنه الا قليلا . واستقر الحلاج في حسي القسريين على الشاطيء الايمن لدجلة حيث كان يسكن أتباعه من أعيان الاهواز الذين اقنعهم بالهجرة الى بغداد منذ سنوات ، ثم استطاع ان يستعمل اليه قائلين وكثيرا من العامة وأدعى الالهية فقال بعضهم انه مجنون وقال آخرون بل له معجزات . ولنا ان نتساءل فنقول وما مصدر هذا الثراء المفاجيء ؟ فهل سلك الحلاج مسلك صاحب الزنج في جمع هذا المال ، او اتبع منهج شيخ القرامطة مع المتيمين الى المذهب ، أم كان هذا المال يأتي عن طريق الاحتيال على البسطاء بأساليب السحر التي تعلمها في الهند ؟ فقد قيل ان الحلاج كان يستخرج الدنانير من الارض وكان يجدها تحت وسادته او يقبضها بيده من الهواء ، وكانت دائما دنانير من تلك التي يتداولها الناس في عصره . لكن بعض معجزات الحلاج او كراماته او حيله ربما ارشدتنا الى بعض مصادر ثروته . وهنا سنعتمد على ما يرميه لنا « لويس ماسينيون » ، فقد اخبرنا ان جماعة من الصوفية زاروه ، فذهب بهم الى معبد مزدكي ، فطلب مفتاح المعبد فلم يجده ، فمر بكه أسام القفل فافتتح الباب ، فدخل هو واصحابه ، فوجدوا شمعة موقدة . فقال لهم حارس المعبد ان هذه الشمعة لا تنطفئ لاليل ولا نهارا ، وقد اوقدها ابراهيم وابن يطفئها سوى عيسى بن مريم . فصر الحلاج بكه أسام لهب الشمعة فانطلقت ، وظن الحارس ان تلك هي علامة الساعة فجعل يبكي امام الحلاج فقال له : اذا اعطيت شيئا لهؤلاء المشايخ اوقدتها لك . فأخرج الحارس صندوق النذور فأخذه الشيوخ ومد الحلاج كفه فاشتعلت الشمعة (6) . كذلك روى لنا ابن الاثير ، عن كثير من الشهود من بين أصدقائه ، قصة رجل اتفق مع الحلاج على الاحتيال . ذلك ان هذا الصوفي ارسل احد أصدقائه الى قرية من قرى الجبل ، فتظاهر ، على عادة الباطنية ، بالعبادة والتقوى وترتيل القرآن حتى اطمأن اليه اهل القرية . ثم ادعى انه فقد بصره . فأخذ بعض اهل القرية يقوده الى الجامع كل يوم . ولما مضت سنة آمن الناس جميعا انه فقد بصره دون رجعة . فخرج عليهم يوما يقول انه رأى الرسول في

(5) المصدر السابق ص 117 .

(6) المصدر السابق ص 91 .

المذهب وتلك الكتابات من معتقدات نجدتها عند القرامطة والباطنية الاسماعيلية بصفة عامة . وقد اعترف « ماسينيون » بأن الحلاج لما غادر بغداد وأخذ ينشر دعوته في الاهواز كان يعتمد في وعظه على مجموعة من الرموز التي اخذها من القرآن كالقلم واللوح المحفوظ والسماء والطارق والنجم الثاقب وهي الرموز التي كان يستشهد بها دعاة القرامطة ممن كانوا يجوبون في هذا الاقليم (7) . فيستشهدون في وعظ من يريدون ادخالهم في مذهبهم بالآيات الظاهرة في المخلوقات على أنها أدلة تشهد بصدق هذا المذهب . كذلك أشار الى أن الحلاج يشبه القرامطة في أنه كان يدعو مثلهم الى دين عالمي ، لكن « ماسينيون » يريد أن يبرئ الحلاج من أن يكون قد ساهم بصورة ما في حركة القرامطة التي كانت ، على حد قوله ، حركة تمرد ضد النظام باسم العدالة ، وشبيهة بحركة الخوارج الاول ، وان نادى القرامطة بامام علوي هو المهدي الذي انتشرت الدعوة الباطنية له في اماكن عدة من العالم الاسلامي كالبحرين والاهواز والاحساء واليمن ومصر والمغرب ، وهي الدعوة التي تشيع لها كثير من الفلاسفة كاخوان الصفا والطبيب الرازي وبعض رجال الدولة .

غير اننا نجده يتساءل بعد ذلك كله فيقول : هل حاول القرامطة ضم الحلاج اليهم . ويتظاهر بالموضوعية فيقرر أن هناك ما يدعو الى قبول هذا الاحتمال ، بناء على تماثل الرموز والاستعارات التي استعملها كل من القرامطة والحلاج في استمالة العامة . لكنه لا يلبث أن يشكك في الصلة بين الحلاج والقرامطة بدعوى أن الحلاج كان يعتقد أن العبادات الشرعية هي السبيل الى تحقيق الاتحاد الصوفي بالذات الالهية . في حين أن القرامطة يرون أن هذه العبادات ليست سوى رموز لقواعد ترمي الى تحقيق غايات اجتماعية . لكننا نميل الى رأي مخالف لاننا سنرى « ماسينيون » يؤكد في موطن آخر أن الحلاج قال ياسقاط شعائر الاسلام ، وعلى رأسها فريضة الحج ، هذا الى أن الدعوة واحدة والهدف واحد عنده وعندهم من التاجريين الدينية والسياسية . فليس الاتحاد الصوفي عند الحلاج الا تأليها عند البشر . وقد وجد من آله خلفاء الفاطميين . وهذا هو ما روج له اخوان الصفا في رسائلهم وما أعلنته الاسماعيلية الشيعية فيما بعد عندما جاء صاحب القيامة الكبرى وأدعى الربوبية وقال بنسخ الشرائع .

(7) ماسينيون - نفس المصدر ص 66 .

آخر يعرفه الحلاج جيداً . وقد سبق أن اقسام بالسنة التي سيلبغ فيها هذا العمل أوجه من العنف . وهي سنة 290 هـ . ومن جانب آخر فإن بعض رؤساء القرامطة ادعوا لانفسهم الربوبية كما ادعاها الحلاج لنفسه . فكيف يفكر في ضمهم اليه اذا كانوا على مذهبه ؟

أما اتصاله بكبار رجال الدولة وبأمراء الجيش فيمكن تفسيره تفسيراً يتسق مع طبيعة تلك الفترة التاريخية الحاسمة التي كانت تتمخض عن دويلات جديدة في المشرق تساند دولة الفاطميين في المغرب ، وهي فترة تحتاج الى الاعوان من داخل الحصن المحاصر أو الى ما يسمونه « الطابور الخامس » . ففي مثل تلك الفترة يجند دعامة الدولة الجديدة كل رجل يمكن أن يفيدوا منه من الدولة القديمة . وهذا هو ما يعترف به « ماسينيون » عندما يحدثنا عن أسلوب الصلح في تجنيد بعض رجال الخليفة المقتدر كـ محمد القناني وأخيه فيقول : « لقد كان منهجه في الدعوة بسيطاً وجريئاً في محاولة ضم مختلف الرجال من مختلف الاتجاهات الى مذهبه ، مستخدماً مع كل منهم مصطلحاته ، وهو المنهج الذي وصفه خصومه بأنه ضرب من الخديعة ، لانه كان ينتسب الى الاعتزال اذا قصد مدينة تدين بالاعتزال . أما اذا كانت من الامامية فانه ينتسب الى الامامية » . وليس هذا المنهج البسيط الجريء الا منهج دعاة الاسماعيلية في ضم الاتباع اليهم ، وبخاصة من الرافضة . أما فيما يتصل بتجنيد رجال الدولة للدعوة الجديدة فقد روى البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق » : « ذكروا انه استمال ببغداد جماعة من حاشية الخليفة ، ومن خدمه ، حتى خاف الخليفة ، وهو جعفر المقتدر بالله ، مرة فتنته فحبسه ، واستغنى الفقهاء في دمه » ومن المؤكد انه استمال رجالاً لهم خطرهم كنصر القشوري الذي لبس ثياب الحداد بعد مصرع الصلاح (II) .

أما أسلوب الحلاج في استمالة العامة عن طريق السحر أو التظاهر بأنه على مذهبهم فقد نبهنا اليه ابن كثير عندما قال : « ولما ورد بغداد جعل يدعو الى نفسه ويظهر أشياء من الماخرق والشعوذة ، وغيرها من الاحوال الشيطانية » . وأكثر ما كان يروج على الرافضة ، لقلة عقولهم ، وضعف تمييزهم بين الحق والباطل » (12)

(11) نفس المصدر ص 294 .

(12) البداية والنهاية ج II ص 137

العلوى الاسماعيلي وفي الوقت الذي يزعم فيه أن الله حل في روحه ، وأنه التجسد الزمني للاله الذي يترك ساحة الازل لكي ينخرط في الزمن كما قيل بالنسبة الى تجسده في عيسى وفي ابن أبي الفوارس . والحق أن الحلاج لا يريد أن يكون مسيحيا كما ظن « ماسينيون » وبعض تلاميذه . وإنما أراد تأليه البشر بادئا بنفسه عندما زعم أنه رب الارباب . فقد نقل الينا البغدادي : « أنهم ظفروا يكتب له الى أتباعه ، عنوانها من « الهو » الذي هو رب الارباب ، المتصور في كل صورة الى عبده قلان . فظفروا يكتب أتباعه اليه وفيها : يا ذات الذات ! ومنتهى غاية الشهوات ! تشهد أنك المتصور في كل زمان بصورة ، وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن المنصور . ونحن نستجيرك ونرجو رحمتك يا علام الغيوب » (16) وتلك هي فكرة « الشاهد الآني » التي شرحها « ماسينيون » ووضحها في كتابه وفي تعليقاته على كتاب الطواسين للحلاج .

هذا الى أن الحلاج لم يكن هو الوحيد الذي ادعى الربوبية فقد ادعاها أحد أتباع مذهب في القرن الخامس ، وكان معاصرا للامام الغزالي ، كما أشار الى ذلك « ماسينيون » وقد حدثنا الغزالي عن الحمقي من الناس الذين يسارعون الى اعتقاد الباطل تجللا به وتظاهرا بقهيمه مع تركهم الحق الواضح لانه جاءهم عن طريق التقليد ، فقال : ان بعض الادعياء في عصره لقب نفسه بناصر الحق ، وزعم العصمة لنفسه ، فصدقه الحمقي من سكان هذا القطر ، وأمنوا بعصيمته ، وهرعوا اليه بأموالهم لكي يقطعهم أرضا في الجنة ، فكانوا لا يترددون في شراء الذراع فيها بمائة دينار . ويرى الغزالي أن هذه الحماقة ليست وقفا على هؤلاء الذين سارعوا الى قبول فكرة الامام الاسماعيلي المصوم ، بل هي نهب مشترك بينهم وبين الحمقي من عامة الناس بدليل أن مدعيا في جزائر البصرة ، وهو أبو عمرة (17) ، لم يكتف بادعاء العصمة وقيامه مقام الرسول ، بل زعم الربوبية لنفسه « وقد شرع ديننا ، ورتب قرانا ، ونصب رجلا يقال له علي بن كحلا ، وزعم أنه يمتازة لمحمد ، صلى الله عليه وسلم ، وأنه رسوله الى الخلق » وقد بلغ عدد الحمقي الذين آمنوا به زهاء عشرة آلاف نفس ، مع أنه ادعى العصمة وما فوقها لنفسه ، عندما قال ان الله قد حل فيه وفي جده من قبل» (18)

(16) الفرق بين الفرق .

(17) ماسينيون ، نفس المصدر ص 335 ، ويسمونه سيدنا وهو أسمى القاب طائفتهم وكان أحول العينين .

(18) المزالي فضائح الباطنية - وانظر كتابنا دراسات في الفلسفة الاسلامية الطبعة الثالثة دار المعارف .

وشخصية أي برسالة صوفية • ومن الضروري أن يقهر المرء عقله أو يسخر منه حتى يقبل تفسير « ماسينيون » الذي لا يمكن قبوله في حين أن هناك تفسيراً آخر أكثر قبولا • فإن ذكر السنة السابعة للدعوة له دلالة واضحة عند الاسماعيلية التي كانت تنتظر ظهور صاحب الزمان ، وهو المهدي المنتظر الذي ينحدر من نسل الامام السابع في سلسلة أئمة آل البيت • هذا إلى أن الاسماعيلية كانت تعرف أيضاً بالسبعية • ويعود « ماسينيون » إلى الشك في جدوى محاولة تيرثة الحلاج من الدعاية السياسية فيتمتع مرة أخرى . هل شاطر الحلاج أهل خراسان أم لهم السياسي ورد معهم تاريخ سنة 290 هـ ؟ ويجب أن هذا التفسير ممكن فعلاً وهو يتسق مع نص تاريخي معاصر له يعد أقدم وثيقة تاريخية عن الحلاج ••• ومضمون هذه الوثيقة أن الحلاج كان يدعو الناس في يدع حياته إلى العلويين ، وبأنه كان يقوم بالدعاية فيثير محبة الناس لآل البيت وذلك إما لصالح صاحب الزمان (أي المهدي) وإما لفكرة الامام المعصوم بصفة عامة • وقد قال البلاذري أن الحلاج كان يطلب إلى أعوانه أن يدعوا للرضا من آل محمد دون أن يسموا أحداً • وأخيراً ليس لنا أن نكتفي بمثل هذه النصوص والشواهد التي نجدها عند « ماسينيون » لنذكر أن تبرئة الحلاج من الاتصال بالقرامطة لا تستند إلى أي أساس موضوعي •

ومن جانب آخر فإن زيارات الحلاج العديدة لخراسان والطالقان والاهواز ، وجرجان وأصفهان وشيراز وقم ونهاوند والبصرة وبغداد ثم العودة إلى مركزه الأساسي هي تستر ليست دليلاً على حياة صوفية وذاتية ، بل طابع التجول السياسي فيها بفجأ البصر مما دعا « ماسينيون » نفسه إلى التساؤل عما إذا كانت هناك صلة بين الدعاية الصوفية والدعاية السياسية للقرامطة في تلك المناطق التي كانت مسرحاً لدعاية مركزية يقوم بها أحد أبناء ميمون القداح منذ سنوات عديدة ؟ والحق أننا لا نرى موجياً لهذا التساؤل ، الذي يمكن أن يوصف بالمسألة أو الدماء • ذلك أن كلتا الدعايتين وجهان لعملة واحدة • فقد مزج الباطنية السياسة بالتصوف كما ظل دعائهم من الفلاسفة ، وتعني بهم أخوان الصفا وغيرهم ، يمزجون بين الفلسفة والتصوف ويبشرون خلال هذا المزج كله بصاحب القيامة الكبرى الذي سيفسر البعث والحشر والثواب والعقاب تفسيراً يتسق مع الأسس التي قامت عليها الدعوة الباطنية منذ نشأتها ، أي على أن هذه الأمور كلها مجرد رموز (20) •

(20) انظر كتابنا جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته . الفصل الخاص بالباطنية .

بدعاء القرامطة والاسماعيلية . لقد قال الذهبي في كتابه « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » ، « الحسين بن منصور المقتول على الزندقة ، ما روى ، ولله الحمد ، شيئا من العلم . وكانت له بداية جيدة ، وتاله وتصوف . ثم انسلخ من الدين وتعلم السحر ، وأراهم الخاريق . أباح العلماء دمه فقتل » أما رد « ماسينيون » على هذا النص ، فيتلخص في أن الله ابتلى الذهبي بالعمى في آخر حياته ، كأنه يوحي بأن ذلك العمى كان أحد كرامات الحلاج بعد مصرعه !

ولن تقرينا طرافة هذا الموضوع الخاص بكرامات الحلاج أو معجزاته أو حيله على أن نستطرد أكثر مما فعلنا ، بل علينا أن نستمر في البرهنة عن طريق كتابات « ماسينيون » على أن الحلاج كان يقوم بمهمة سياسية في المقام الاول . فقد نقل الينا هذا المستشرق قصة طرد الحلاج من مدينة « قم » عندما أراد ضم أهلها الى دعوته فارسل كتابا الى أحد كبارها وهو ابن بابويه يدعى فيه أنه رسول الامام اليه . فلما لقيه ابن بابويه رفض الاستجابة اليه وأمر بضربه ، وسخر منه ومن معجزاته ، ثم شيعه بلعناته . فلم ير أحد الحلاج في مدينة « قم » بعد ذلك أبدا (21) .

وقد اخفق الحلاج أيضا في استمالة كبير الامامية ببغداد وهو أبو سهل اسماعيل ابن نويخت وكان لاسرته في بغداد مكانة كبيرة شبيه مكانة أسرة البرامكة في صدر دولة العباسيين . وقد مهدت أسرة بني نويخت هذه الدولة بني بريه فيما بعد . وكان أبو سهل رئيس هذه الأسرة شاعرا ومتعلما وهو الذي اتجه بالامامية الاثناعشرية الى اعتناق آراء المعتزلة وله كتاب ضد الغلاة من الشيعة القائلين بتاليه الامام . فهو إذن صيد ثمين في نظر دعاة الدولة الاسماعيلية في دور الظهور . وقد روى أن الحلاج ظن أن أبا سهل بن نويخت ربما صدق دعوته وأمن بمعجزاته وأعانه على أمره فكتب اليه بأنه وكيل صاحب الزمان عليه السلام ، وكانت تلك هي الخطوة الاولى في محاولة ضم الاعوان التي تتلوها خطوات أخرى ، كما هي عادة دعاة الغلاة من الباطنية . ثم أخبره الحلاج في كتابه أن صاحب الزمان قد كتب اليه لكسي يطمعه على المعجزات الكفيلة بإقناعه . « ذلك أن صاحب الزمان يشفق عليك وهو يريد أن يضمك اليه » فاجابه أبو سهل : اني أسألك عن شيء صغير جدا لا تعجز عنه الى جانب ما جرى على يديك حتى الآن » ثم يرجو الحلاج أن يعيد اليه سواد شعره لانه يحب الجوارى ، وعنده عدد كبير منهن . لكنهن يتفرن منه لبياض شعره مما يضطره الى صبغه . ثم

(21) ماسينيون ، المصدر السابق ص 152 .

أن « ماسينيون » يتظاهر هنا بعدم الفهم ؟ فمن الثابت أن الاسماعيلية في دور السתר كانت حريضة على جر الامامية الاثناعشرية وراءها في الثورة السياسية ضد الدولة العباسية السنية منذ منتصف القرن الثاني . لكن بنى نوبخت في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع كانوا أكثر فطنة مما تصور دعاة القرامطة ، لانهم رأوا أن التحالف مع أهل السنة في تلك المرحلة الدقيقة أفضل بكثير من الانضمام الى دولة جديدة بدأت تطلّعها بثورة الزنج ثم امتد نشاطها في ثورة القرامطة التي كانت لا تفرق في حروبها غير الانسانية بين أهل السنة وبين الامامية الاثناعشرية (23) . وقد أدت فحاسة بنى بويه الى نتائجها . فاستولى بنو بويه على السلطة الزمنية ابتداء من سنة 334 وأن لم يحل ذلك دون سيطرة الاسماعيلية على الحكم في بغداد لفترة من الزمن فيما بعد . وقد أراد « ماسينيون » أن يربط بين استيلاء البويهيين على السلطة وبين انتهاء غيبة الامام الاثنى عشرى الصفري وقيام الغيبة الكبرى (24) بعد أن تحققت للامامية الاثناعشرية أهدافها السياسية .

وقد سلك « ماسينيون » مسلكا ضعيفا في الدفاع عن الحلاج عند حديثه عن محاكمته . فهو يصر أصرا على نفي الصلة بين الحلاج وبين القرامطة بالرغم من كثرة الشواهد التي تؤكد وجود هذه الصلة في الاوراق التي ضيقت مع الحلاج وقدمت الى هيئة القضاء ، تلك الاوراق التي كانت تحتوى على كثير من الرموز والنظريات التي لم تفهم في بدء المحاكمة سنة 301 ثم بدأ فك رموزها فيما بعد . وقد حاول ماسينيون أن يزعم أن الحلاج لم يحاكم كقرمطي أو داعية من دعائهم ، بل حوكم بتهمة الزندقة وادعاء الربوبية فحسب كأنما ينسى أن تهمة الزندقة وجهت من قبل الى دعاة القرامطة كابن أبي الفوارس ، كما ينسى أن الحلاج إنما أدين في المقام الاول لمحاولة إبطال فريضة الحج ، وأن القرامطة انتقموا له بهدم الكعبة ونزع الحجر الأسود منها ، وقالوا أنهم نزعوه بأمر وردوه بأمر (25) .

ومهما يكن من أمر ، فإن محاكمة الحلاج التي امتدت من سنة 301 هـ الى 309 كشفت عن أمور كثيرة أهمها ما تميز به القضاء الاسلامي ، حتى في أحلك عصوره

(23) فيما بعد أي في سنة 352 أثار عضد الدولة بن بويه الصراع بين هاتين الطائفتين .

(24) ماسينيون ، نفس المصدر ص 159 .

(25) انظر مقالنا السابق الحلاج والقرامطة .

وظل الوزير حامد بن العباس يبحث عن أعوان الحلاج واستخدم الجواسيس فقبض على السامري ومحمد بن علي القنائي وأبى بكر الهاشمي الذي سماه الحلاج أبا المغيث وكان يقال انه نبيه . وقد عثر عند القنائي وعند تلميذ آخر للحلاج على عدد كبير من الاوراق ، وعلى كتب مكتوبة على ورق الصين بماء الذهب ومجلدة بالحرير والجلد الفاخر . كذلك عثر على أوراق بأسماء أتباع آخرين للحلاج ومنهم ابن بشر وشاكر البغدادي وكانا يجوبان في منطقة خراسان ، كما فعل الحلاج من قبل ، وقد احتوت بعض الخطابات التي كان يرسل بها الى أتباعه وعماله في مراكز الدعوة على تعليمات محددة لجذب الناس اليهم ولضمهم الى الدعوة درجة بعد درجة حتى ينتهوا بهم الى الغاية القصوى من مذهبه ، مع مخاطبة كل منهم على قدر عقله وفهمه (28) ، وتلك هي طريقة القرامطة واخوان الصفا كما رأينا من قبل . أما الاجابة على تلك الرسائل فكانت تحتوي على رموز يفهمها الحلاج وتلاميذه . وكانت بعض هذه الرسائل تحمل شعارا على هيئة دائرة يوجد داخلها اسم علي وفي وسطه كلمة الله . وقد قال « ماسينيون » معلقا على هذا الشعار انه شعار امامي ولم يكن الحلاج اماميا ، وان حامدا ومساعديه لم يفهموا شيئا من المصطلحات الصوفية الفنية في مراسلات الحلاج . ولا ريب عندنا في انهم لم يستطيعوا ايضا حل رموز الشفرة التي كان يستخدمها القرامطة في ذلك الحين .

ومع ذلك ، فان بعض الرسائل التي كان يبعث بها عماله في الاقاليم كانت لها دلالة خاصة ، اذ جاء فيها انهم يبشرون به في كل البلاد بالاسم الذي يقدره الناس ، فيعضهم يبشر به علي انه باب الامام ، وبعضهم يبشر به علي انه صاحب الزمان (الامام) وآخرون يقولون انه « هو هو » أي الله . وعلى الرغم من هذه الانقلاب التي تكشف عن حقيقة الدور السياسي الذي قام به الحلاج فان « ماسينيون » اكتفى بأن شكك في صحة بعض هذه الانقلاب فقال : ان « باب الامام » مصطلح امامي ، ويعبر عن الامام المهدي الذي تنتظر الامامية ظهوره . ونسى هنا ان عمال الباطنية كانوا يخاطبون كل قوم حسب فهمهم ومعتقدهم . لكنه لم يعلق بشيء على مصطلح « صاحب الزمان » وهو مصطلح اسماعيلي ، ولا على مصطلح « الهو هو » مع انه يدل على نظرية اساسية عند الحلاج في كتاب الطواسين الذي حققه « ماسينيون » ونشره . وأخيرا يختم دفاعه الضعيف في هذه المسألة بقوله ان هذه الرسائل خاصة بابن القنائي وهو شيعي 15

(28) ماسينيون ، المصدر السابق ص 252 .

يمثل هذا الكلام هجيب منه • ثم سئل ابن عطاء عن مقالة الحلاج ، فصرح كتابة انه يؤمن بهذه العقيدة ، وبأن من لا يؤمن بها فهو كافر • فأمر الوزير بمحاكمته ، فحضر وجلس في الصف الاول وسأله الوزير هل هذا خطك فقال نعم • فقال له الوزير : أتوافق على هذا المعتقد ؟ فقال : ما شأنك وهذا الرجل يعني الحلاج ، لماذا تتبعه بحقدك ؟ لماذا تصادر أموال الناس وتسبى معاملتهم وتقتلهم • وحوكم ابن عطاء ثم أعدم بعد ذلك بأيام (30) وفيما بعد سيحتج « ماسينيون » لمعجزات الحلاج بشهادة ابن عطاء الذي ضحى بنفسه إيماناً بصدق الحلاج في ادعائه الإلهية •

وببدو أن ابن عطاء كان من أشد خلصاء الحلاج بدليل أن هذا الأخير كان حريصاً كل الحرص على أن يحتفظ ابن عطاء بما عنده من مخطوطات شخصية وكان من بينها « كتاب الطواسين » الذي لم يظهر إلا بعد فترة طويلة من الزمن • وقد نقل ابن خفيف هذه الوصية إلى ابن عطاء ، ذلك أن ابن خفيف أتبع له زيارة الحلاج في سجنه الذي أعده له نصر القشوري وجملة يافخر الاثا • فلما علم ابن عطاء بالوصية قال لابن خفيف : لئن رأيته قل له انني سأحفظ هذه الكتابات في مكان أمين ولو أدى ذلك إلى أن يقع لي ما وقع له (31) •

وعلى الرغم من هذه الشواهد العديدة التي لا ينكرها « ماسينيون » ، والتي تدل على أن مذهب الحلاج لم يكن يتسق ، لا مع مذهب أهل السنة ولا مع مذهب الإمامية الاثناعشرية ، فقد كان السبب في ادانته هو موقفه من فريضة الحج التي أراد إبطالها والاستعاضة عنها ببديل ، مع أن الاسلام لم يوجبها إلا ، على من يستطيع القيام بها • وقد عثر حامد بن العباس في الاوراق المضبوطة مع الحلاج على ما يثبت تلك التهمة • فقد رسم الحلاج طوقس الحج الذي رأى الاستعاضة به عن الذهاب إلى مكة فقال : متى أراد المرء أداء فريضة الحج فله أن يقيم في حجرة من منزله فيجعل فيها محراباً يشروط معينة ، ثم يتطهر ويحرم ، وأن يقول كذا ويفعل كذا وأن يصلي هكذا ، وأن يقوم بأفعال أخرى يصلها الحلاج تفصيلاً • فإذا قام بذلك سقط عنه الحج إلى بيت الله الحرام •

وقد ذكر ابن عياش أن أحد رؤساء الحلاجين اعترف له بذلك وقال : أن الحلاج أخذها عن آل البيت • غير أنه أضاف أنه ليس بصحيح أن هذه الطريقة تفتى من الحج ولكنها تعد بدلاً منه عندما يعجز المرء عن السفر إلى مكة لفقر أو لمرض •

(30) ماسينيون نفس المصدر ص 259 - 260 •

(31) نفس المصدر السابق ص 272 •

وشئ آخر له دلالة العميقة في دراسة ماسينيون وهو أنه يقرر دون تردد ولا حرج أن نسخ شرائع الإسلام يرتكز على مبدأ أساسي عند الحلاج وهو مبدأ أسقاط التكاليف ، إذ ليس ثمة جدوى من وجود هذه الشعائر التي تعد وسائط بين الله والانسان : ليس هذا هو لب المذهب القرمطي الذي يصف العبادات بأنها مجرد رموز يراد بها بعض الغايات الاجتماعية ، والذي يدعو الى تاليه البشر صرفا لهم عن عقيدة التوحيد . ثم يأتي « ماسينيون » بعد ذلك كله ويزعم أنه من المحتمل جدا أن يكون ما نسبته الحلاج الى الحسن البصري في مسألة الحج أمرا صحيحا ، مع ما نعلمه من حرص « ماسينيون » على استخدام النصوص وأن كان يؤولها تأويلا غريبا في أكثر الاحيان .

لكننا لم نره يكشف لنا عن النص الذي يزعم أنه من المحتمل أن يكون في كتاب الاخلاص على الرغم من أن فقهاء بغداد وصفوا دعوى الحلاج في هذا الصدد بالكذب . فمن الواضح أن ماسينيون لا يجد حرجا في محاولة تدنيس تاريخ الحسن البصري التابعي الجليل نصرة لقضية خاسرة أراد أن يجعل منها ملحمة في عصر أصبح لا يتسع للاستطير . ومن جرأة ماسينيون على الحق أنه يطعن في القضية الذين لم يبتوا في قضية الحلاج الا بعد ثمان سنوات ، فيقول : انه من المحتمل جدا أن يكون هناك اتفاق سابق بين القضية وبين الوزير حامد ، مع اعتراف هذا المستشرق بأن القول بإسقاط التكاليف أو نسخ شعائر الإسلام نظرية جراحية اكيدة .

ولابد من أن نقرر أن الغاية التي وضعها ماسينيون نصب ميني كانت تبرر له أن يسلك مسلك التناقض وأن يتهم دون حياء على الحسن البصري وعلى قضية المسلمين نصرة للحلاج الذي اعتقد أنه الجسر بين المسيحية وبين الإسلام السني . ان تلك الفكرة السابقة هي التي افسدت على « ماسينيون » أشياء كثيرة على المستويين النظري والعملی . فقد أخفق مثلا في الربط بين المسيحية والإسلام عن طريق نظام الأبناء البيض في الشمال الافريقي .

انه من المعروف أن ليس هنالك اتفاق حول تحديد مفهوم النخبة المثقفة ، وخاصة حول تصنيف المستبين إليها ، ولذا فاننا نادر بالقول بأن الفئات المعنية هنا هي :

- فئة الفنانين التكنوقراطيين *
- اصحاب المهن الحرة من حاملي الشهادات الجامعية مثل المحامين ، والاطباء ، والصيادلة *
- فئة الفنانين المبدعين مثل الرسامين ، والمخرجين السينمائيين *
- رجال الفكر ، وفي مقدمتهم الكتاب *
- فئة المساهمين في نقل الانتاج الثقافي ، ونشره مثل الصحافيين الثقافيين ، ومن لهم علاقة بالنشيط الثقافي *
- فئة الجامعيين *

لنا قصدنا اعطاء مفهوم النخبة المثقفة في الاقطار العربية طامعا شاملا ، لان تعريف المسبين الى النخبة المثقفة بأنهم أولئك « الذين يعيشون من ممارسة العمل الفكري ، ومن أجله » حسب تعبير (ريمون أرون) يخرج مثلا حاملي الشهادات الجامعية البعديين عن الانتاج الفكري ، وهم أولئك الذين أصبحوا بعد تخرجهم يمارسون مهنة يومية مثل التدريس ، أو معالجة المرضى بالنسبة للأطباء ، أو المحاماة ، أو الهندسة . ان مجرد حمل شهادة جامعية لا يكفي - إذن - ان يكون مبررا للانتساب الى النخبة ، ويمكن أن يصنف ضمنها شخص آخر مثقف ثقافة ذاتية للشخصية ، ولم ينتسب يوما الى عيكل حامعي *

ولكن بالرغم من هذا المفهوم الشامل الذي أردنا اضافاء على مصطلح النخبة المثقفة فان فئة الكتاب والفنانين المبدعين نقن في قمة الهرم ، وهي التي اجمع الباحثون على انتمائها للنخبة ، بل قد حسسوها عصبها المحرك باعتبارها المجموعة الوحيدة القادرة على أداء رسالة النخبة المثقفة في مجتمعها ، وهي رسالة نستطيع تلخيصها في النقاط التالية

- 1 - قيادة عمل التقدم ، وتفسير الواقع حسب رؤية شمولية مستقبلية *
- 2 - تدعيم النظرة العقلانية لسرور المجتمع *

التي هي من جملة ما كان عليه الحال في تلك الفترة من تاريخنا .

والتي هي من جملة ما كان عليه الحال في تلك الفترة من تاريخنا .

والتي هي من جملة ما كان عليه الحال في تلك الفترة من تاريخنا .

والتي هي من جملة ما كان عليه الحال في تلك الفترة من تاريخنا .

والتي هي من جملة ما كان عليه الحال في تلك الفترة من تاريخنا .

والتي هي من جملة ما كان عليه الحال في تلك الفترة من تاريخنا .

والتي هي من جملة ما كان عليه الحال في تلك الفترة من تاريخنا .

عميقه ، فهي باعتبارها جبهة موحدة تعيش صراعا مستمرا ضد فئات محافظة تقليدية
تتمسك بقوالب عصور الانحطاط في تاريخ المجتمع العربي الاسلامي ، وما أفرزته
من عقليات متحجرة ، وشعارات زائفة جوفاء ، وهي مستعدة أن تسلك جميع السبل
في سبيل المحافظة على امتيازات مرتبطة بالدوران في فلك السلطان ، ولعل هذا النوع
من الصراع أخف وطأة عليها من الصراع الداخلي الذي تكمن وراءه خلافات عقائدية
وبالتالي سياسية ، فهو صراع يقود الى التصدع ، ثم الى الهزال واضطرار ضعفاء الايمان
الى اعلان التوبة ، والركض وراء ركب ذوى السلطان . ولا مناص من الملاحظة هنا أننا
نقرأ أحيانا ، أو نسمع نقدا لاذعا موجهيا الى رجال النخبة المثقفة لما يبدو من تباين في
وجهات نظرهم ، واختلافاتهم العقائدية .

اننا نؤمن ان هذا الصراع الايديولوجي المعروف اليوم في صفوف النخبة المثقفة
العربية أمر طبيعي ، فهو مرتبط بنظرة افرادها المستقبلية ، وبالتحديد رسالتهم في
تغيير اوضاع مجتمعاتهم ، قضية المصير العربي ما تزال مطروحة ؛ أي سبيل ينبغي أن
تسلك ؟

هذا وقد أشرنا الى أنهم أبناء يثائهم بتناقضاتها ومظاهر تخلفها .

ان المؤلم في هذا الصراع الداخلي ليس الاختلاف في الرؤية بل انعدامها لدى عدد
كبير من أفراد النخبة المثقفة العربية بالمفهوم الواسع الذي حددناه .

اننا لا نذيع سرا حين نقول ان هنالك عددا كبيرا من افراد النخبة المثقفة فاقدا
للوعي ، عديم الرؤية ، وهذا مظهر من مظاهر تخلف النخبة ، وهو اشد وطأة ، واضع
من تخلف الآخرين .

ونلاحظ أن انعدام الوعي هذا لا تكاد نجده في صفوف الفئة الطلابية داخل النخبة ،
واعني رجال الفكر والفنانين المبدعين ، ولكننا نلمسه في فئة التكنوقراطيين والاطباء
والمهندسين ، ونميز في هذا الصدد بجلاء بين انعدام الوعي والانتهازية اننا لا نمنى
- اذن - أولئك الواعين بقضايا مجتمعاتهم ، وبرسالتهم تجاهها ، يسلكون طريقا
انتهازيا لتحقيق مآرب شخصية جنيية ، مقصوحة .

و. انهماكل الثقافية ، وفي المؤسسات الثقافية والمهنية آمنة امكانية الذود عن الحد
لاذى من مادلها ، ولبس من الصدفة ان الترخيص لجمعية ثقافية يمنع فى بعض
الايطار العرمة بحجة حماية أمن الدولة !! وقد آن الاوان للتمييز بين فئات النخبة ،
بعد جعل طروف موضوعية النظم السياسية تعتمد على الفنين التكنوقراطيين ،
جهم احسان كبرى ، وفى صفوفهم نجد النسبة الكبيرة من فاقدى الرؤية والالتزام ،
من سب عليه زعمهما يشغل بالمظاهر المادية ، ولهو الحياة العصرية ، ولا سيما وقد
دست لديه ومائلها المادية .

اما الفئة التى اخنار الناس فى فهم موقفها فهى مجموعة الاطباء ، فبالرغم من انها
امر الفصا على الاستقلال المادى عن السلطة فانك تجد أكثر افرادها مرتبطين بالنظم
القائمة . بل قل فى طلفة المهللين ، فهل هو ضعف الوعى ، ام هى قضية تحول
النهج الانمساخ السرفة الى حرفة تجارية لدى عدد كبير ، ام ان هنالك أسبابا أخرى ؟
انها ظاهرة تتناج الى المزيد من التعمق والتحليل .

هكذا سعى فئة رجال الفكر هى الفئة القليلة الحاملة لمسئ التضال رغم ظروفها
ملاذيه المعقدة . ولا شك ان السبب الرئيسى يعود الى الوعى ، ووضوح الرؤية فى
التحليل . وعمق المطق السيسى الذى يتسلح به أكثر افرادها ، لكن بالرغم من هذه
المادصا الى لحا الى بعضها ، وبالرغم من مظاهر التخلف التى نلمسها فى صفوف
لجنة الشفقة العرمة ، ومن دورها الهامشى فى المرحلة التاريخية الحاضرة فاننا نؤمن
بها تحاول أداء رسالتها ، وقد تنحصر فى الظروف السياسية الراهنة فى عملية
محدث حدى الفكر العربى المعاصر ، وتدعيم طرق جديدة فى التفكير والتحليل ، وهى
حد ذاتها رسالة ذات شأن تتجاوز الحاضر بمشاكله اليومية العويصة ، وتنطلق
حو المستقبل ، فهو عمل مستقبلى طويل النفس لا يستطيع ان يقوم به غير المثقفين .

أحرفاً و (كهيص ، وجمصق) على خمسة أحرف • فسمى العلماء هذه الألفاظ
فواتح لبعض السور من القرآن ، كما سيأتي التوضيح والبيان ، وهي سر من أسرار
الرحمان ، وفوق ما يدركه الإنسان ، وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال :
« لله في كل كتاب سر ، وسره في القرآن أوائل السور » •

وروي ابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الحروف ثناء أثنى
الله به على نفسه • وقال الأخفش : (أن الله تعالى أقسم بهذه الحروف على أن هذا
الكتاب ، هو ذلك الكتاب الميث في اللوح المحفوظ) وورد عن قطرب قوله : (أن
الكفار لما قالوا : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وتواصوا بالاعراض
عنه أراد الله تعالى لما أحب من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكون
ذلك سبباً لاسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن فأنزل الله هذه الحروف ،
فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمعجبين : اسمعوا إلى ما يجيء به محمد عليه السلام -
فاذا أصغوا هجم عليهم القرآن ، فكان ذلك سبباً لاستماعهم وطريقاً إلى انتفاعهم •
وقال المبرد : (أن الله تعالى إنما ذكر هذه الفواتح احتجاجاً على الكفار ، وذلك أن
الرسول صلى الله عليه وسلم لما تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو
بسورة واحدة ، فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف تنبيهاً على أن القرآن ليس إلا من
هذه الحروف وأنتم قادرون عليها وعارفون بقوانين ألفصاحة ، فكان يجب أن تأتوا
بمثل هذا القرآن ، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر) •

و (الم) هذا اللفظ افتتح الله به سورة البقرة ليشعر أهل الفصاحة والبلاغة من
العرب أن الله معجزهم فلن يستطيعوا مجاراة القرآن في أسلوبه ، وبلاغته وأعجازه •
روي الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها • لا أقول (الم)
حرف ، لكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف) الحديث •

وروي أبو ظبيان عن ابن عباس قال : عجزت العلماء عن إدراكها • واحتج
المتكلمون على هذا القول وقالوا لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون
مفهوماً للخلق ، واستدلوا بعدة آيات نذكر بعضها منها اتماماً للقائدة • قال تعالى :
« أقلل وتدبروا القرآن أم على قلوب أقفالها » أمرهم بالتدبر في القرآن ، ولو كان غير
مفهوماً فكيف يأمرهم بالتدبر فيه • وقال تعالى : « وأنه لتنزيل رب العالمين نزل
به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » ، فلو لم يكن مفهوماً

« ربما وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم
ابن العريز الحكيم » ، انه ذلك الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ بدليل قوله تعالى :
« وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم » وقال : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام
الكتاب » اي في اللوح المحفوظ واتفق العلماء على أن المراد من الكتاب هو (القرآن)
قال تعالى : « كتاب أنزلناه اليك » هذه الكتاب المشار اليه .

« لا ريب فيه » اي لاشك فيه ، واتفق عن القرآن الكريم الشك والحيرة لانهما
مفسدان الى الفلق وعدم الاطمئنان ، وهذا الكتاب حق وصدق « لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » فقد تعهد الله بحفظه وصيانيته وجعله
« هدى للمتقين » انه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، وهو نور وكتاب
مبين . وقال تعالى : « قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا » وقال :
« فمن قبح هداي فلا يضل ولا يشقى » ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضلوكا «
وقال « ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » انه طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ، وهنا
محدث بدأ ان تذكر مدى التناسب والترابط بين السورة السابقة (الغاشية) وبين هذه ،
ففي الاولى قال تعالى : قولوا في دعائكم : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين
أنعمت عليهم » وهنا ذكر الهداية والتقوى ، فالهداية هي التوفيق من الله لعباده
ومعرفة طريقه المستقيم الموصل الى اليقين ، فالتقوى حساسية في الضمير ، وشفافية
في الشعور ، وحنينة مستمرة ، وحذر دائم ، وتوق لاشواك الطريق ، طريق الحياة
الذي تتجاذبه اشواك الرغائب والشهوات ، والميول والنزعات . اللهم نجنا واعف
نفسا واهدنا .

ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا
انك انت التواب الرحيم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين .

بالتوجه الى الله فى خشوع حقيقى ، وبهذا الايمان الصادق فى النفس المؤمنة تقام الصلاة ، وتنظم الطاعات ، ويجتاز الانسان مرتبة الحيوان ، الذى يقف ادراكه حيث يحس ، ويشاهد ويتلمس ، اما الانسان ، فانه بفضل الايمان يدرك بطاقة عقله المحدود معرفة خالق الخلق وصانع الوجود ، وبذلك يثبت ايمانه ، ويصحح اعتقاده ويقبل على الصلاة فيعبد ربه فى خشية وخشوع ، وطاعة وخضوع ، فتتجنى الجباه للواحد القيوم ، امثالاً لطاعته ، واشعاراً بالخضوع لعظمته ، وعلى قدر سعته ، وكسبه ، يؤدي ما عليه من حق ربه ليتال رضا ، وخيره وبره ، واحسانه : « لن تقالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وعلى قدر الانفاق ، تكثر الارزاق ، ويقدر الثناء على الله والشكر ، يتواصل مدد الخير ، و « لئن شكرتم لازيدنكم » • والذين ينفقون جانباً مما يرزقهم الله به فى وجوه الخير والبر سينالون سعادة الدارين « وما انفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » •

أيها المسلمون : يقول تعالى : « **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيُؤَاخِرُونَ** » أي الذين يصدقون بالقرآن المنزل على محمد من الله ، وبما فيه من أحكام وأخبار وقصص وأطوار ، ويعملون بمقتضاه ، ويصدقون بالكتب الالهية التى نزلت على من سبقوا رسول الله من الانبياء والرسل ، كالتوراة والانجيل وغيرهما ، لان رسالات الله واحدة فى أصولها ، وأهل الايمان يتميزون عن غيرهم ، ان يمتدحوا اعتقاداً جازماً بمجيء يوم القيامة وبما فيه من حساب وثواب وعقاب •

وخلاصة القول ان صفات المتقين ثلاثة : **أولاً** ، الايمان بالغيب : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملأته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله » • **ثانياً** : المحافظة على الصلاة وأداؤها فى أوقاتها بنية الاخلاص لله فى فعلها واستيفاء شروطها : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر • **ثالثاً** : الاتفاق فى سبيل الله : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كممثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » •

ربنا اننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار •

أيها المسلمون ، بعد أن ذكر الله الصفة الخامسة للمتقين ، الذين آمنوا بعسدر الله الذي بيده الثواب وبيده العقاب ، وبيده المغفرة أنه الواحد الثواب * جاءت الإشارة الى المتقين الذين عرفهم بسماتهم وصفاتهم ، هؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم أنهم الفائزون بما قدموا من صالح الاعمال ، فكان سعيهم حميدا ، حين آمنوا بكل ما أخبر الله به ، وبتأدية فرائضه ، وبما أنفقوا من مال الله الذي استخلفهم عليه ، كما آمنوا بالقرآن وبكل ما أنزل الرحمان ، واستيقنوا بالوقوف أمام الواحد الديان . « ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا » يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » * وهنا يجنى المتقون ثمرة أعمالهم ويحظون بالرضا والرضوان ، لانهم كانوا يمثلون لما أمر الله به ، ويجتنبون ما نهى الله عنه ، بدافع نيل الثواب ، والنجاة من العقاب *

ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، يا عزيز يا غفار ، يا من رحمته أوسع من عقابه ، وتسمع كل شيء في ملكه * « رينا أنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار » *

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين *

عباد الله : « أن الله يامر بالعدل والاحسان وأيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » *

سماوات المدفوع

والشيخ محمد الشاذلي ابن القاضى، الذى نعته البنا أنباء الجمهورية التونسية الشقيقة
فى اليوم السابع من شهر مارس 1978 م ، شخصية علمية اسلامية بارزة ، كان لها
اثر كبير فى حياتنا الفكرية ؛ فكل كلمة مقنضبة تقال ، فى مناسبة كهذه ، قاصرة عن
الاحاطة بحميد خصاله وجلائل أعماله .

لهذا اعتذر عما اعتبره قصورا فيما أقوله عنه الليلة ، موجزا حديثى فى بدايته
عن حياته العامة ، مركزا بعد ذلك على ما قدمه للجزائر وأبنائها من خدمات يذكرها له
التاريخ بمزيد من التقدير والاكبار .

حياته العامة :

أيها السادة ، بوفاة العلامة الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضى ، انتهت حياة صرفت
كل لحظة منها فى التفكير فى شؤون المسلمين ، والعمل لاصلاح أحوالهم ، وتعليم
ابنائهم ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم . وحياة كهذه تستحق الدرس الشامل العبق،
للافادة منها والنسج على منوالها .

لقد عاش الفقيد للعلم ينشره ، وللإسلام ينصره ، وللعربية يحميها من كيد
الكائدين وتكر المتكبرين ؛ فما وهن له عزم ، ولا ضعفت له ارادة ، ولا فت فى عضده
طفيان الاجنبى الدخيل ، ولا تشبیط المتخاذل الدليل . وهذا شأن أصحاب المبادئ
الذين آمنوا بالحق فحالفوه ، وكفروا بالباطل فقاوموه .

لا يفريهم نعيم الحياة ودعة العيش ، وسط مجتمع من البؤساء الذين تسلب
الاستعمار على خيراتهم فتهبها ، وعلى أجسادهم فاهزلها ، وعلى أرواحهم فأخمدها ،
وعلى أخلاقهم فشووها ، وعلى عقولهم فاستلبها أو حجروا ؛ فهم بين منهج بريق
حضارة لم يساهم فى صنعها ، ومتحجر فى كهوف الانحطاط قد استنطاب العيش
فى ظلماتها .

من جميع السياسيين على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، وذلك لما امتاز به من اخلاص
فى العمل وصلابة فى الحق .

اصلاح التعليم الزيتونى :

وكان من الاركان الاساسية التى اعتمد عليها الامام محمد الطاهر ابن عاشور ،
مدير الجامعة الزيتونية ، فى اصلاح التعليم الزيتونى ، الذى استهدف تطوير
البرامج ، وتنظيم شهادات الجامعة الزيتونية بشهادات المؤسسات العلمية بفرنسا ،
وعن هذا الاصلاح يقول العلامة المرحوم الاستاذ محمد البشير الابراهيمى فى جريدة
البصائر فى عددها الخاص بممهد ابن باديس والصادر فى شهر جويلية سنة 1948 ،
محددا شروط هذا الاصلاح ودوافعه :

« لم ير جامع الزيتونة فى عهده الاخيرة ازهر من هذا العهد . ولم ير فى الرجال
المسيرين له رجلا اقدر على الاصلاح وامد باعا فيه من شيخة الحسالى . واذا كان
الاصلاح يسير ببطء فما الذنب ذنبه ، وانما الذنب لطبيعة الزمان والمكان ، وضعف
المقتضيات وقوة الموانع . وحسبه أنه حرك الحامد ، وزعزع الجامد ، واجال اليد
المصلحة فى الادارة ، وفى كتب الدراسة ، وفى أشياء آخر » .

« ... والحق أن فى جهاز التعليم بجامع الزيتونة خلاا يحتاج الى الاصلاح ،
وعلاا يجب أن تراح ، وتفاصيل يجب أن تعالج ، وتوافه من التنظيم يجب أن تلتفى » .

« ... فاذا اطمان بعض اصدقائنا واخواننا من علماء الزيتونة على ابقاء ما كان
على ما كان ، فليعلموا أن ورائنا من الزمن سائقا عنيفا حطمة ، يستحث البطاء ،
ولا يفض من أنة المعجال ، وإن بين أيدينا ودائع من شباب منطلق الى الكمال ، تواق
الى السبق ، حريص على دقائق عمره أن تنفق الا فيما ينفق . وهو يريد أن يكون
كزمنه وأبناء زمنه ، وزمنه ثلاثة : جد واتقان ونظام . وأبناء زمنه أحالهم العلم

« والامة الجزائرية لا يقال عنها : انها فى ايام احتلال بلادها لم تؤسس المؤسسات . ولم تقدم للانسانية فى هذا الوطن خدمة عقلية أو دينية أو اجتماعية . بل يقال عنها : شر من ذلك اذ هى قد عوقبت شر عقوبة عرفها تاريخ العصر الحديث ؛ فقدت ما بين يديها » وسلب منها ما أنشأه الاوائل لهذه النواحي وما أسسوه لخدمة العلم قبل الاحتلال . اغتصبت أوقافها ، ونزعت منها مساجدها ، ومنعت حق التصرف فيها ، وفرضت عليها قوانين من شر ما يعرفه البشر فى عالم التشريع الانسانى ، فالتعليم الدينى والدينى سلطت عليه قوانين لا انسانية فيها ، وكلف بسنها وتنفيذها أولئك الذين كلفوا بتشريع وتنفيذ قوانين الجرائم . وبات تعليم العلم والقرآن فى الجزائر فى عداد الجزائر . يحاكم معلم القرآن والعلم ومحارب الامية ، من غير رحمة من الحكومة ، مع القتل والمجرمين (بقوانين واحدة ، وفى محكمة واحدة وعلى يد قاض واحد ، وفى يوم واحد . وكم لهذه القوانين من ضحايا ادمت القلوب » .

مع ابنائنا فى الزيتونة :

وفى هذه الظروف القاسية اضطر الجزائريون - محافظة على شخصيتهم العربية الاسلامية - أن يتوجهوا الى أى مكان تيسر لهم الاتجاه اليه لتعلم العلوم العربية والاسلامية . وكانت تونس الشقيقة أوغر البلاد العربية حظا فى استقبال هؤلاء الجزائريين الوافدين على زيارتها المباركة ، يقتبسون من نورها ما يغذى نفوسهم ، وينير عقولهم ، وقد وجدوا من الفقيه ، باعتباره مديرا للمدارس سكنى الطلبة ، كل رعاية وعناية ، حيث فتح لهم المدارس يسكنونها ، وساعدهم على اتمام اجراءات الالتحاق بصوف الدراسة .

مع جمعية العلماء :

ونظرا لحبه للجزائر وتعلقه الشديد بها فقد أسندت اليه « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » مهمة تمثيلها بالقطر التونسى الشقيق ، فكان بهذه الصفة

ولتنفيذ هذه المهمة الدقيقة والعظيمة اقامت الجمعية - بناديبها الكائن بنهيج عبد الوهاب بتونس ، وباتفاق سابق مع الشيخ المحتفل بذكراه الاربعين - حفلة تكريم للامام محمد الطاهر ابن عاشور بصفته رئيسا شرفيا لها ، حضرها معه ، بالإضافة الى الشيخ الشاذلي ابن القاضى - مدير المدارس - بعض أعضائه : الشيخ على النيفر ، نائبه ، والشيخ محمد المختار بن محمود ، والشيخ الفاضل ابن عاشور . وفى هذه الحفلة التكريمية - فى طاهرها - عرضنا على مدير الزيتونة رغبة جمعية العلماء ؛ فأكبر هذه المبادرة العلمية ، وأعرب عن اغتباطه الشديد بأن يعترف بمعهد يحمل اسم أحد تلاميذه الاصفياء - الامام عبد الحميد بن باديس - كقرع للجامعة الزيتونية ، فقدمنا له شكر الجوائز العربية المسجلة على هذه الخطوة المباركة ، وسارعنا - بعد انتهاء الحفلة التى أقيمت صباحا مباشرة - الى تسجيل هذا الاعتراف فى بلاغ سلمناه الى الجريدتين المسائيتين : « النهضة » و « الزهرة » ؛ لنبأغت به الاقامة العامة الفرنسية فى نفس المساء ، وجعلناه تحت عنوان : « جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين تحتفل برئيسها الشرفى : فضيلة مدير الجامعة الزيتونية » حتى نفاظ الاعقامة العامة ونفوت عليها فرصة التحرك السريع لابطال الاعتراف ، فنضعها بذلك امام أمر واقع لا يسمعها الا اقراره .

وقد نجحت الحطة التى رسمناها بمساعدة العلامة ابن القاضى وتحت اشرافه . وبعد سنة من الدراسة بالمعهد الباديسى وقع حدثان هامان : أولهما اصدار جريدة (البصائر) عددا خاصا بالمعهد ، قدم فيه رئيس جمعية العلماء الى الامة المعهد وأساتذته وتلاميذه ... وكان فى مقدمة من خصهم بكلمة تقديرية ، بهذه المناسبة ، مدير الجامعة الزيتونية : الامام محمد الطاهر ابن عاشور ، وفقيدنا العظيم الاستاذ محمد الشاذلى ابن القاضى ، تنويعا بدوره فى الاعتراف بالمعهد ، واشادة بفضل على الجزائر وأبنائها . والحدث الثانى : ايفاد « جمعية العلماء » وفدا الى تونس لتمثيل المعهد فى احتفالات الزيتونة الرسمية بنهاية السنة الدراسية ، يتألف من الاساتذة : عبد المجيد حيرش ، أحمد حسين ، على المغربى وعبد الرحمن شيبان . وقد خص

وعبد العزيز جعيط ، ومحمد العاصل ابن عاشور . ودار الحديث أثناء المأدبة حول حاضر الثورة الجزائرية ومستقبلها بعد حريتها واستقلالها . وكان الفقيه فرحاً بهذا اللقاء فرحاً شديداً ، وقد أعلن فيه عن ثقته المطلقة في انتصار الجزائر المحقق بإذن الله . . . ومن بين ما أوصانا به الفقيه بمحضر المرحوم الشيخ تميم التميمي - أثناء الثورة - : العمل على إقامة « مجلس إسلامي أعلى » في الجزائر بعد استقلالها ، وقدم لنا قانوناً أساسياً لهذا المجلس ، آملاً أن لا تقع الجزائر فيما وقع فيه غيرها من البلاد الإسلامية المستقلة حديثاً ، من تبعية واستلاب .

مع الجزائر المستقلة :

ولما استقلت الجزائر وأنشئ المجلس الإسلامي الأعلى ، دعت وزارة التعليم الأصل والشؤون الدينية الراحل العظيم لالقاء محاضرة في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة 1976 ، ودارت محاضرته حول القضية التي جند حياته لخدمتها وهي « الإسلام في حاضره ومستقبله » .

ولا يفوتنا في نهاية هذه الكلمة - أن نطلب من العلماء المسلمين - في مشرق الأرض ومغربها - مواصلة رسالتهم في خدمة أوطانهم عملاً بقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . ونأمل أن يتعزز التعليم الإسلامي بالجزائر حتى يكون تطورها في إطار الإصالة . وأن يدعم المجلس الإسلامي الأعلى صلاته بالمنظمات الإسلامية لخدمة الفكر الإسلامي ومسايرة ركب الحضارة .

ورحم الله الفقيه الجليل محمد الشاذلي ابن القاضى ، وبجأزه أحسن الجزاء على جهاده في سبيل العلم والعروبة والإسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

انه يودعنا بعد حياة طويلة ، مليئة بجلال أعمال ، والسعي المتواصل في خدمة
الامة والنفع العام ، والنصح لله ولرسوله ولكتابه وللائمة المسلمين وعامتهم . فلم
يكن يدخر سماً ولا يني ، ولا يتوقف امام الصعاب ولا يثنى .

ولد رحمه الله من عائلتين كريمتين : فأبوه هي العلامة الشيخ محمد بن القاضي ،
قاضي تونس ، وأمه من آل النيفر المعروفين بالشرف والعلم – بمدينة تونس عام 1318 هـ
(1901 م) ورباه أبوه فاحسن تربيته . وانخرط في سلك الجامعة الزيتونية عام 1333 هـ
(1915 م) وتخرج منها عام 1340 هـ (1922 م) وكان من أساتذته العلامة الشيخ محمد
ابن يوسف ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخا الاسلام، والشيخ محمد النخلي ،
والشيخ يلحسن النجار والشيخ محمد بن الصادق بن القاضي والشيخ محمد العزيز
جعيط الوزير السابق والشيخ محمد البشير النيفر قاضي الجماعة ، وما منهم الا كان
الامام الركن والمحقق المتقن ، والعلامة المفتن ، وابتدأ التدريس بالجامعة وهو في
شبابه متدرجا من درجة (معاون) عام 1346 هـ (1928 م) الى درجة استاذ عام 1372 هـ
(1953 م) وكانت هذه الدرجة بالزيتونة عزيزة لا ينالها الا الفطاحل المبرزون . وبهذه
الصفة دخل الجامعة التونسية ليدرس في كلية الزيتونية للشريعة واصول الدين .
حتى وافاه الاجل المحتوم .

عرفت الاستاذ في ميدان العلم والعمل منذ امد طويل ، عام 1354 هـ (1935 م) ،
وكان استاذنا بالزيتونة ، فتلقيت منه دروسا نافعة في العربية وكان رحمه الله يبذل
مجهوداته الكبيرة في ايسال النفع لابنائهم بمختلف الطرق ، محبا لهم ، مشققا عليهم ،
عظيم الحلم عن اخطائهم وهفواتهم ، كريما معهم جميعا يشجع المتفوقين ويثيبهم ،
ويأخذ بيد الضعفاء ويرشدهم ، فكثرتوا يجلونه ويقدرونه ، ويحلونه من انفسهم
وقلوبهم الحبل الرفيع . ذلك انه لم يكن من الذين يكتفون في تلقين طلابهم بالقواعد
الجافة ، ولكنه كان يتجاوز بهم حد تلقين القواعد الى التربية والتفهيد وحسن
التوجيه ، مما يجعل الطالب يحس من استاذة انه ايضا رفيق له ، وصاحب يستأنس
بصحبه فيقبل نصحه ، ويفتح له فؤاده ، وتجلب خصاله الحميدة في أروح مظاهرها
يوم تولى ادارة مساكن الطلبة وما في ذلك من مشاكل كان يجد لها حولا ترضى
جميع الاطراف وتريح الطلبة .

لقد كان الاستاذ محمد الشاذلي بن القاضي – كأحد علماء الزيتونية ، أو الجامع
الاكبر – ممن يحسون بعظم المسؤولية التاريخية الملقاة على عواتقهم : انها امانة

ارتفعت الشكوى في الصحف التونسية - هذه المرة الاخيرة - من بلدان عديدة في القطر التونسي الشقيق بالبدع والمنكرات - وبقي علماء الزيتونة واجمين ساكتين كان الامر لا يعنيهم ثم : (اننا ندعوكم بكلمة الله الى الصديق بالحق وانقاذ المسلمين) ولم يذهب هذا النداء صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ، بل كان له اثر استحسان عظيم في اوساط العلماء الشبان أعوان الاصلاح وانصاره وعلى رأسهم الفقيه الكريم ، والاستاذ العلامة الشيخ المختار بن محمود والعلامة الاستاذ محمد الهادي بن القاضي وغيرهم فتحركوا للعمل المفيد ، وكانت ثمرته الاولى (المجلة الزيتونية) *

لقد كان الوسيط الزيتوني - الى ذلك العهد - يتسم بالتزمّت والمحافظة ، وكثير من شيوخه لا يرون للطالب الاشتغال بقراءة الجرائد ، والاهتمام بمطالعة مقالاتها ، لانها تشغله عن دراسة الكتب الجافة المقررة ، وتعمقه عن تحصيل العلوم النافعة : وكان القيمون بالجامع يراقبون الطلاب ، ولا يسمحون لهم بفتح صفحات جريدة في قلب الجامع الاعظم - فاصدار (مجلة) من علماء زيتونيين رسميين ، مؤيدة من شيخ الجامع الاعظم ، ومن شيوخ الاسلام والعلماء الاعلام ، كان بحق حدثا جديدا ، وكسبا عظيما للاصلاح ، وكان لاصدار هذه المجلة - بالفعل - صدى عظيم في جميع الاوساط ازال غشاوة على أعين كثير من الناس ، اذ ان كثيرا من الناس كانوا يرمونها بالمقم والجمود ، ويسمون شيوخها بالتحجر والعجز والكسل ، بينما كان محبوبا واولياؤها مشفقين عليها ، وجليين من مصيرها ، أملين ان تبدر منها ومن شيوخها بوادر ترق عين الودود ، وتكتب كل حسود ، فكان صدور (المجلة الزيتونية) ميسر ' بطور جديد ، ميرها على الحيوية والنشاط والكفاءة في ميدان التحرير والتفكير والعلم والاجتماع والسياسة والاصلاح *

وقد استقبلتها عائلة الاصلاح بما هي جديرة به ، وكتب بقلمه الاستاذ عبد الحميد ابن باديس في العدد العاشر من المجلد الثاني عشر يقول :

(يحق لي - وأنا تلميذ من تلاميذ الزيتونة - ان أغتبط بالمجلة الزيتونية غبطة خاصة ، ويحق لي - وأنا جندي من جنود الاصلاح الاسلامي العام - ان اسر سرورا خاصا بتمرّز معاقل الاصلاح بها) ثم يقول (فجاءت المجلة الزيتونية تملن الاصلاح وتحمل رأيه وتدعو اليه باسم جامع الزيتونة المصور ، فكان فوزا مبينا للاصلاح والمصلحين ونصرا عظيما للاسلام والمسلمين) ويقول عن محرريها (قد ازدادت عزتها باسماء اربعة من خيرة الشبان العاملين : الاستاذ محمد الشاذلي بن القاضي ،

الشعب التونسي استقبالا كريما ، واحتفى به في الاوساط العلمية احتفاء كبير وخطب في العامة والخاصة فنال الاعجاب ، وأثار كوامن الاحساس . ثم اتبع هذه الزيارة بزيارتين أخريين احدهما بمناسبة إقامة حللة لذكرى المرحوم الشيخ البشير صفر أحد رواد النهضة التونسية ، والاخرى بمناسبة عودة المرحوم الاستاذ عبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الحر الدستوري التونسي .

وكان استاذنا الشيخ محمد الشاذلي بن القاضى ممن يحف بالاستاذ ابن باديس ويلزمه واثناء اقامته بتونس لذكرى الشيخ البشير صفر ، استدعى للقاء محاضرة عن الحالة في الجزائر قالت عنها جريدة الزهرة اليومية ما نصه :

(وقع اقبال عظيم جدا على سماع هذه المحاضرة الكبرى ، وكان الاستاذ ابن باديس يتوسط المسرح وعن يمينه حضرة العلامة الفاضل ، الشيخ السيد الشاذلي بن القاضى صاحب رصيفتنا (المجلة الزيتونية) الفيحاء والسيد السرى الامثل حسان بوجدة كما كان على يسار الاستاذ المحاضر السيدان الشاذلي المكي ، وقلى الزين) ولحضت جريدة الزهرة محاضرة الشيخ ابن باديس وختمت مقالها قائلة :

وبأثر ذلك وقف حضرة العالم الفاضل الاستاذ الشيخ السيد الشاذلي بن القاضى المدرس بالجامع الاعظم دام عمرانه وصاحب رصيفتنا (المجلة الزيتونية) الفراء ، وارثجل خطابا قيما ، قدم فيه خالص الشكر للاستاذ ابن باديس بالنيابة عن الزيتونيين واثنى على هذا المصلح الكبير والزعيم الاسلامى العظيم الذى تتمثل فيه الناحيتان العلمية والسياسية وقال في هذا الصدد .

ان الجزائر اليوم اذا اعتمدت فانما تعتمد على هذا الشيخ الجليل ثم قال الاستاذ ابن القاضى ونحن ان شاء الله مقتفون خطوات هذا الاستاذ في خدمة العروبة والاسلام واذا قال الاستاذ ان العلم يجب ان ترافقه السياسة فاننا نقول : ان لنا علماء صربوا في الحركة السياسية بهم مصيب . وانكركم بان اول كلمة صدرت في بناء الدستور كان مصدرها العالم الكبير الاستاذ الشيخ الصادق النيفر (اه - نقلا عن مجلة الشهاب .

وكان مما عاتب به الشيخ ابن باديس رحمه الله علماء الزيتونة انهم اغفلوا في عزلتهم عن محيطهم واسرفوا في انكماشهم الذى قصلهم عن الشعب المسلم الذى من حقه عليهم ان يتصلوا بطبقاته وجماعه . ويبثوا الوعي الصحيح في افراده وجموعه وان يستمدوا منه قوتهم وطاقتهم لاداء مهمتهم الدينية القومية على اكمل وجوها .

حكمكم فافرج عنهم في نحو 24 ساعة • كما كنا فيمن سعى لتأسيس الهلال الأحمر التونسي لاسماف ضحايا القذف الجوى الفظيع ، والمنقطعين عن اوطانهم ، واللاجئين ، ومما اذكره اننا لما ارسلنا طلب الانخراط في مؤسسة الصليب الاحمر الدولي بجنيف رجع الطلب مرفوضاً مرفقا بكلمه : حيثما وجد الصليب الاحمر الفرنسي لا يسمح بوجود الهلال الاحمر ! وانما ذكرت هذا لاقول ان المشائخ الزيتونيين ومنهم استاذنا الفقيد لم يبقوا - حتى في اخرج الاوقات - مكتوفى الايدي ، بل تحركوا لخدمة امتهم ودينهم ، وتعرضوا لاعظم الاخطار.

وانتهت الحرب ، وعادت الحياة الى مجراها الطبيعى ، وصراعها العنيف ودخلت الجامعة الزيتونية في حياة جديدة ، وتطور عظيم ، بالنسبة الى ما كانت عليه قيسر عام 1939 م • فاما الجامعة فقد دخل برامجها اصلاح كبير جعلها - بحق - جامعه حقيقية حرة ان تؤدى مهمتها على احسن الوجوه قابلة ان تتطور مع الزمن ، واتسمت وامتدت فروعها حتى تجاوزت حدود تونس الى الجزائر ، واما طلبتها فقد اصبحوا فون رهية لها وزنها الثقيل في الحياة العامة وفي الاجتماع والعلم ، والسياسة والكفاح المرير ضد الاستعمار واعوانه • واما المشائخ فقد اندمجوا في محيطهم وتركوا عزلتهم ، واصبحوا في اتصال متين مع الشعب ، تخطب ودهم الاحزاب والجمعيات وتلتمس عونهم ، وتستفيد من كفاءاتهم في الراي والفكر والقيادة والخطابة والكتابة ومن أشهر رجالهم في هذا الميدان استاذنا محمد الفاضل بن عاشور رحمه الله ، واستاذنا محمد الشاذلى النيفر عميد كلية الشريعة واصول الدين حفظه الله ونفع به وبعد الاستقلال أصبح الاول مفتى الجمهورية التونسية الفتيبة والثانى عضواً في برلمانها الرشيد.

ثم جاءت احداث الثورة الجزائرية عام 1374 هـ (1954 م) وانقطع ما بينى وبين استاذى الفقيد وغيره من مشائخ يتونس ، ولم اجتمع به الا بعد الاستقلال بمدة طويلة ، ففى عام 1392 هـ (1972 م) ورد الى الجزائر بمناسبة ملتقى التعرف على الفكر الاسلامى السادس المنعقد بالعاصمة الجزائرية بمناسبة مرور عشر سنوات على الاستقلال ، وقد حضر هذا الملتقى في صبحبة صديقة ورفيقة في العمل الاسلامى والنشاط السياسى والاجتماعى استاذنا المبرور المختار بن محمود رحمه الله • واذ كان كرك الغداة ومر العشي قد تركا اثارهما على الاجسام ، ووجدت الاستاذ ابن محمود لا يكاد ينطق ولا يبين فان هذه السفين لم يكن لها اي تأثير على النفوس ، وما زالت لهما

[illegible]

توضيح حول نشر محاضرات الملتقى

ننشر هذه المحاضرات طبقاً لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلننا عنه فى العدد الاول من « الاصاله » تميمًا للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات . وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم تصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيات سابقة، وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا من هذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصاً أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطر منذ سنوات . باسم المركز الثقافى الاسلامى .

ثم ان الموضوع لغوي طبعا ، وهو من هذه الجهة جدير بالبحث
والعناية ، لان علم اللغة من العلوم الانسانية على الاصالة . واللغة
« ترجمان الفكر » كما قال الامام محمد عبده ، وهي وسيلتنا الاولى الى
استكشاف جوانى الامة التى تتكلم بها واستكناه خصال روحها
وعبقريتها .

والموضوع اجتماعى ايضا ، فان شواهد الماضى وتجارب الحاضر
- فى الشرق والغرب - تثبت أن اللغة - هى اقوى
عوامل الوحدة والتضامن بين اهلها . ولا بدع فان اللغة - كما قال
الفيلسوف « نيتشه » تلازم الفرد فى حياته ، وتمتد الى اعماق حياته ،
وتبلغ الى اخفى رغباته وخطراته . انها تجعل من الامة الناطقة بها كلاً
متراصا خاضعا لقوانين ، انها الرابطة الحقيقية الوحيدة الرابطة بين
عالم الاجسام وعالم الازهار » .

ولست اعرف لغة من لغات الدنيا ، يصدق عليها قول « نيتشه »
اكثر مما يصدق على لغتنا العربية . فلم يعد خافيا على أحد أن للمربية
اثرا فى تكوين عقليتنا وتدبير تفكيرنا وتصريف افعالنا وهداية
سلوكنا يفوق كل اثر سواه ، وبالأجمال نستطيع أن نقول : ان نظرنا
الى الكون والى الناس محكومة بلفتنا ، أردنا أم لم نرد ، وشعرنا أم لم
نشعر .

وللموضوع جانب سياسى قطعا : فان المتتبع لسير الحركات
الفكرية فى بلاد العرب والاسلام يتبين فى وضوح أن كثيرا من تلك
الحركات قد اتخذت لبلوغ اغراضها صورا ثقافية مختلفة ، وأنها
تنادى دائما بالتححرر من قيود الماضى وطرح اعباء القديم .

وان نظرة فاحصة الى ما وراء المظاهر المتعددة التى تتخذها هذه
الحركات ، سواء فى الادب أو الفلسفة أو الفن أو السياسة ، تقتنعنا
بأنها جميعا تصدر عن هوى واحد وترمى الى مقصد واحد كذلك .

أما الهوى فهو اشاعة التشكك والاضطراب فى مفاهيم الامة
ومقوماتها ، حتى تضيق معالم تراثها الروحى ولا يبقى أمام أدباء الفكر
فيها الا صورا مهزوزة وعقائد مسوخة .

وأما المقصد فهو التمكين للنفوذ الاجنبى من نواحيها ، متى نام
وعبها ، وتفرقت كلماتها ، فنسيته تاريخها ، وضلت عن طريقها ،

• «...»

... ..

•

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

لذلك رأيناهم في السنين الأخيرة يثبون العمل. هنا وهناك ،
للسعوى بالعلم واللسان الى اطراح اللغة الفصحى والعناية باللغة العامية
واللهجات الإقليمية . فاذا تم لهم ما يريدون حققوا في نفس الوقت
ما يرمون اليه من تقويض وحدة العرب ، وتفتيت القومية العربية
الفصحى .

* *

وواضح مما قدمت أن الامر جد خطير ، ويحتاج الى ملتقى فكري
كهذا الملتقى الرابع ، لا للتعرف على الفكر الاسلامى ، بل لاتقاسد
لساننا وضميرنا ، لان زوال اللغة فى أكثر الامم يبقيا بجميع مقوماتها
غير الفاظها . ولكن زوال اللغة العربية ، كما قال المرحوم المقاد ،
«لا يبقى للعربى او المسلم قواما يميزه عن سائر الاقوام ، ولا يعصمه
ان يلوب فى غمار الامم ، فلا تبقى له باقية من بسان ولا عرف ولا
معرفة ولا ايمان» .

* *

فاذا كنا جادين فى اقوالنا فلنكن جادين فى افعالنا ، واعنى بذلك
اننا اذا كنا نريد حقا أن نتجاوز مرحلة الخطب الحماسية ، وعقدنا
العزم فى وعى وبصيرة على أن نعيد مجد الاسلام ، وأن نصون وحدة
العروبة ، فواجبنا أن نحافظ بكل ما فى وسعنا على خصائص لغتنا
وأن نستمسك فى الوقت نفسه بالسمات الفكرية الاصلية التى تجعل
لهذه اللغة فلسفة متميزة .

خصائص اللغة العربية :

منذ ما يقرب من ثمانين عاما كتب المستشرق «فا نديك» ما ترجمته :
«أن اللغة العربية من أكثر لغات الارض امتيازا ، وهذا الامتياز من
وجهين : الاول من حيث ثروة معجمها ، والثانى من حيث استعاب
آدابها» فمئذ نيف وثلاثين سنة كتب المستشرق «بركلمان» : بفضل
القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أى لغة أخرى من
لغات الدنيا . والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان
الذى احل لهم أن يستعملوه فى صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية منذ
زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات العالم الأخرى التى تنطق بها

الاخبار - «كل انسان فان» وهذه في العربية جملة خبرية تامة لا تحتاج الى اثبات فعل الكينونة هذا ، في حين أن الفرنسية مثلا تقول Tout homme est mortel ومعناه : كل انسان يكون فانيا ، أو «كل انسان يوجد فانيا ! والفكرة المفهومة من الارتباط بين المسند اليه والمسند في النحو العربي أو «الموضوع» و «المحمول» بلغة المنطقة ، فكرة واضحة ماثلة دائما في نفس الناطقين بالضاد، يلتفتون اليها ويخطرونها ببالهم حين يواجههم المعنى ، فاذا ارادوا أن يبرزوها أو أن يؤكدوها عمدوا الى لفظ مثل قولهم : «انه هو الحق» .

نخلص من هذا الى أن الاسناد في اللغة العربية يكفى فيه انشاء علاقة ذهنية بين «موضوع» و «محمول» دون حاجة الى التصريح بهله العلاقة نطقا أو كتابة ، في حين أن هذا الاسناد الذهني لا يكفى في اللغات «الهندو - أوروبية» الا بوجود لفظ صريح مسموع أو مقروء» يشير الى هذه العلاقة في كل مرة ويحمل معنى الوجود وهو «فمسل الكينونة» في اصطلاحهم ، ويسمونه في تلك اللغة «رابطة» بالفرنسية COUPLE من شأنها أن تربط بين «الموضوع» و «المحمول» في الذهن اثباتا او نفيا .

وقد التفت بعض منطقة الغربيين في المصور الحديثة الى تكلف هذه «الرابطة» اللفظية في أكثر اللغات الهندو - أوروبية : فقد بين «جون ستيوارت ميل» أننا لا نحتاج في القضايا المنطقية الى شيء سوى «الموضوع» و «المحمول» ، وأن «الرابطة» إنما هي مجرد علامة على ارتباطها من حيث هما موضوع ومحمول ، وفي هذا المقام نفسه قال «بورانكيه» : «جرى المنطق الصوري على تحليل القضايا تحليلًا صناعيًا متكلفًا الى عناصر ثلاثة يمكن فصلها بعضها عن بعض ، وهي : الموضوع ، والمحمول ، والرابطة ، وعمليات المنطق الصوري تقتضي في أغلب الأحيان ضرورة الحصول على الاجزاء الثلاثة ، لان المقصود حينئذ هو التخلص من مصنع الزمن التي تتصل بالحكم العلمي» ، والتي هي مبهمة شاقة في القياس الصوري ؛ ولكن هذا النموذج ليس في الحقيقة نهائيا : لان الحكم يمكن أن يتم بدون موضوع نحوي وبدون فعل الكينونة ، بل بدون أي فعل من أفعال النحو على الإطلاق .

على أن علماء اللغات أنفسهم - وفي مقدمتهم «قندريس» -

العربية هو الامر الذي تجاهد بعض الفلسفات الغربية المعاصرة أن
أن تنقذه حين تقرر أن الوجود سابق على الماهية .

وبين عند من له الملم بالفلسفة الغربية الحديثة أو هذه المثالية
- التي هي أصيلة في اللغة العربية - أنما عبر عنها ديكرت فيما بعد
بما اصطلح على تسميته باسم «الكوجيتو» الديكارتي ، وعبر عنها
كانط فيما سماه هو باسم «الثورة الكوبرنيقية» ومعناها إجمالاً أن
الفكر هو المقياس الذي تقاس به الأشياء ، وأن «عالم الاعيان» (أي
العالم المحسوس) محدود على قد «عالم الازهان» (أي عالم الوعي
والوجدان) . وليس من شك لدى الباحثين في قضايا الفكر العربي أن
هذه القضية بالذات قد انعمت لها لواء النصر ، لا عند كبار فلاسفة
العربية وحدهم ، كالفراي وابن سينا وابن رشد ، بل عند علماء الكلام
المسلمين ، كالنظام والخياط والجاحظ .

فاذا رجعنا الى تأمل الفكرة في ضوء فلسفة اللغة العربية ، وجدنا
غالب الراي عند علماء اللغة قد عبر عنه صاحب كتاب «الطراز» (يعني
ابن حمزة اليمنى) في قوله : «أن الحقيقة في وضع الالفاظ إنما هو
الدلالة على المعاني الذهنية دون الموجودات الخارجية ويضئ المؤلف
العربي فيقيم البرهان على هذه الحقيقة بقوله «اننا اذا رأينا شبعاً من
بعيد وظنناه حجراً سميناً بهذا الاسم . فاذا ازداد التحقيق بأنه طائر
سميناً بذلك ، فاذا حصل التحقيق بأنه وجل سميناً به . فلا تزال
الالفاظ تختلف عليه باعتبار ما يفهم منه من الصور الذهنية فينبئ ذلك
على أن اطلاق الالفاظ إنما يكون باعتبار ما يحصل في الذهن . ولهذا
فانه يختلف باختلافه» .

وينتهي صاحب «الطراز» الى تأكيد ما نحن بسبيله ، وهو المعنى
الذي أشرنا اليه في مذاهب كبار الفلاسفة من قداما ومحدثين ، من أن
تصور الأشياء في الذهن هو المرتبة الاولى في تحقيقها في الذهن
وتصورها . وهذه الرتبة هي الاصل ، وعليها تترتب الموجودات
الاخرى لان الشيء اذا لم يكن له تصور في الذهن وتحقق ، فانه لا
يمكن وجوده في الخارج بحال . ثم أن بعض التصورات الذهنية قد
يستحيل وجودها في الخارج ، كما تقول في القديم تعالى ، والقدرة

تقضى بالافعال الى اللوات من غير تكلف الفاظ اخرى • وليس يوجد ذلك الا في لغة العرب واما غيرها من اللغات فكل معنى او حال لا بد له من الفاظ تخصه بالدلالة ، ولذلك نجد كلام المعجم في مخاطبتهم اطول ما نلقوه بكلام العرب ، وهذا هو معنى قوله (ص) : «اوتيت جوامع الكلم »»

وتعريف البلاغة في العربية تعريف «جواني» وهو الوصول الى كنه ما في القلب ، كما يقول صاحب «الطراز» بل ان مزايا البلاغة العربية «جوانية» كذلك • وفي هذا يقول عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الاعجاز» ، بعد ان افاض في بيان مزايا الكلام التي يتفاضل بها ويتقارب ويبين ان هذه المزية «من حيز المعاني دون الالفاظ» وانها «ليست لك من حيث تسمع بأذنك ، بل تنظر بقلبك وتستعين بفكرك وتعمل برويتك وتراجع عقلك وتستجد في الجملة فهمك» •

وجملة القول ان العربية بطبيعة بنيتها وتركيبها تعين الذهن الانساني على أن يسلك الطريق الطبيعي في تحصيل المعرفة ، واعنى بذلك انها يقينة على الانتقال انتقالا مسيرا مما هو «معطى» وما هو «ظاهر» الى ما هو خفي وما هو باطن •

ومنطق التفكير في اللسان العربي منطق «صاعده» اعنى انه يسير دائما من الأدنى الى الأعلى ، ومن البراني الى الجواني •

ولغة العربية سمات لا يتسع الوقت لشرحها ، فحسبى الآن أن أشير اليها إشارة سريعة • فأقول ان من سماتها ، بالإضافة الى المثالية والحضور الجواني ، صدارة المعنى ، والاعراب ، ورسم الظلال والالوان والحرص على الاجاز والتركيز مع دقة التعبير ، والدعوة الى الحركة وتوخي الوعي والفهم قبل المنطق والسمع والكتابة •

*
*
*

ويحلو لى فى الختام أن أورد شهادة المرحوم «لوى مسنيون» الذى وصف اللغة العربية بأنها «تلك ديالكتكا المعجزة التى تروى الى الابدى ولا يستغرقها المتغير الزائل ثم قال : اللغة العربية لغة وعى ولغة شهادة - ويتبقى انقاذها سليمة بأى ثمن ، للتأثير فى اللغة

الفكر الاسلامي والتيارات المعاصرة

عبدالمجيد العمراوى

استاذ بجامعة الخرطوم - الحلقة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة
والسلام على سيدنا محمد سيد القلوب ودوائها ، ونور الابصار
وضيائها ، اللهم انى اعوذ بك ان اضل او اضل او اعتدى او يعتدى
على ، او اقول زورا ، او اغشى فجورا . اما بعد :

معالي الوزير

حضرات العلماء والدكاترة والاساتذة

اخواني الطلبة ، سيداتي سادتي

يسعدنى أن أساهم فى الملتقى الرابع بهذا الحديث المتواضع
موفياً حق الشكر وأنقل لكم جميعاً تحية عاطرة الانفاس من اخوانكم
علماء مدينة فاس واذا كان الشكر المنعم والاعتراف بالجميل واجبين
بالعمل والشرع والطبع فانى أسجل هنا باسم وقد المقرب الاقصى
شكرنا واعترافنا بالجميل للذين نظموا هذا الملتقى وللإصدقاء، بل
للاخوة الجزائريين الذين أكرموا وفادتنا وسهروا على راحتنا حتى
شعرنا بأننا بين أهلنا وذوينا، وان كان فى حديثى هذا توفيق وصواب
فهو مقتبس من علومكم الوافرة ومستلهم من أرواحكم الزكية الطاهرة
وان رأيتم فيه انحرافاً عن الحق والصواب فهو منى والى ، ومقدمة عن
حديث هيئت بعض عناصره فوق عجالات القطار، وكتبت بعض سطوره
فى ملاحقة الاسفار وقد اختصرت حديثى اختصاراً استجابة لرغبة
كريمة من أخ كريم هو الاستاذ رشيد بن عيسى ، وموضوع حديثى هو
الفكر الاسلامي والتيارات المعاصرة . التيارات المعاصرة التى يقف
بعض الشباب بينها حائراً متردداً اربعة :

(*) محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد
بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ - 19/10 اوت 1970 م .

الفكرى أيها السادة له أهمية عظيمة فى السير الحضارى للحياة اذ به يستفيد الناس من بعضهم وتكون نقطة انطلاق الابناء من حيث انتهى الآباء لا من حيث ابتدأوا .

ان الدين كما قدمنا يدعو الناس أن يربطوا بعضهم تحت لواء واحد وان فصلت بينهم قرون بعيدة ، بل الدين هو هذا الرباط البشرى الذى كان السبب فى المحافظة على نوعنا ، وتحصين نسلنا وحماية ضعيفنا واطعام جائعنا ، والا فلماذا اطعم الجائع واحمى الضعيف اذا لم أرج بعمل جزاء موفورا وسميا مشكورا ، فلماذا لا ارتكب الجرم بعيدة عن القانون وفى خفاء من الناس اذا كنت لا أخشى عقابا ليما ، فلانسلاخ عن الدين والعقيدة يصير البشرية فصيلة من الحيوان لا ترجو ثوابا ولا تخاف عقابا ، ان الدين أكثر زجرا من القانون ، فالقانون انما يراقب الظواهر بينما الدين يراقب الظواهر والسرائر ، فايها اذن أجدر بالبقاء والخلود .

هؤلاء الذين ينكرون وجود اله خالق ترى من أرشدهم أن يسكوا الذى حينما خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، ومن علمهم التفكير ومن غرس فيهم الفرائز لا يستطيعون لها دفعا ولا لغيرها جلبا من أرشد الفرخ الذى يخرج من البيضة الى أن يلتقط الحب التقاطا ويرتوى من الماء ارتواءا فان زعموا أن الطبيعة تفعل ذلك فالطبيعة صدفه والصدفة لا تكون بطريق الدوام والاستمرار هذا الى أن الطبيعة غير عاقلة ولا حية ولا عاملة فلا تهب اذن العقل والعلم والحياة لان فاقد الشيء لا يعطيه فالميت لا يعطى الحياة والجاهل لا يعطى العلم والعاجز لا يعطى القدرة .

انا دخلنا هذا العالم مكرهين وسوف نخرج منه مكرهين وبين دخولنا وخروجنا نفعل بالاحداث مكرهين فنفتقر ونحن نحب الغنى ونمرض ونحن نحب العافية ونعجز ونحن نحب القوة وتذل ونحن نحب العزة ومع هذا فان هناك قوة جبارة اقوى من آمالنا وهى التى تسيّرنا وضيئنا أم كرهنا ، انا لا نستطيع أن نتحكم فى عواطفنا فى حيننا للناس وكرهيتنا ، فى رضانا وغضبنا ، فمن يتحكم فينا اذن ؟ الجواب القطرى الذى يوحى به عقل العاقل وقلب المتأمل أن فاعل ذلك كله هو الله تعالى مبدع ومنشئ الكائنات ، والانسان الذى خلق

الفروض الا اذا كان قاطعا في البطلان والشبهات التي يثيرها الملحدون فما كانت فهي مجرد شكوك لا تستطيع أن تبطل عقيدة راسخة ودينا يقينيا وهم لحد الآن ما زالوا يشكون ، أى مازالوا لم يخرجوا عن دائرة الشك الذى لا يبطل اليقين وفى الدين القويم من القوة الروحية ما يجعلها ترد الشك باليقين وتحافظ على استمراره وشموله وقد شاهدنا دائما فى الماضى والحاضر أن القوة الروحية المستوحاة من الدين تقهر قوة السلاح وقوة المال وقوة العلم ، وقد تقدمت أمثلة فى التاريخ وخير مثال لها فى العصر الحاضر هى الثورة الجزائرية المباركة التى استوحت قوتها من الدين والعقيدة أفلم تقهر قوة السلاح وقوة المال وقوة العلم ، والشريط السنمائى الذى شاهدناه ليلة الخميس. مثال صادق أيضا ذلك الشريط الذى أثبت أن قوة الدين قهرت قوة السلاح وقوة المال وقوة العلم •

هذه بعض البراهين على وجود اله خالق قادر ذكرتها غير مستفيضين ولا مستوعبين حججا أخرى ربما كانت أدل وأقوى ، والتى استعملها القرآن الكريم ليجادل بها المعطلين والملحدين : ففى النطفة فى الارحام وتكوين الانسان من العلقة التى هى الحيوان المنوى بالسبحر الجديد ، وقد قال الله تعالى: « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فنبارك الله أحسن الخالقين » وفى الإشارة الى أن الشمس والقمر يجريان بحسبان دقيق لم يكن العرب يومئذ قد عرفوه وفى سورة الرحمن « الشمس والقمر بحسبان » وقد تحدى القرآن الكريم الناس جميعا بأنهم لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابا واحدا ولو اجتمعوا له ، وقد مضى على هذا التحدى أربعة عشر قرنا ، وما زال هذا التحدى قائما موضوعا ، لقد وصل العلم الى أجواء الفضاء وربط الارض بالقمر ونفذ فى أعماق الارض والبحار وجال مع الانلاك فى مدارها ولكنسه لم يستطع ان يخلق ذبابا حقيرة أو حشرة صغيرة •

فما زال هذا التحدى قائما ، وما زلنا منتظرين ، أن العلم الحديث فى شموله واتساعه ما زال عاجزا أيضا على أن يبطل آية واحدة من آيات الكون المذكورة فى القرآن بصفة قاطعة لا تقبل الشك ، بل ان

[illegible]

۱. **مقدمه:** این سند به منظور تعیین و مشخص کردن وظایف و مسئولیت‌های اعضای هیئت مدیره و مدیرعامل شرکت، تدوین شده است.

[illegible]

في النازلة التي لا يوجد فيها نص ، بل ان بعض الصحابة اعطوا
لأنفسهم الحق أن يجتهدوا مع وجود النص -

اننا نؤمن بما أنزل على عيسى وموسى ومن بعد موسى وعيسى ولكن
المسيحيين يؤمنون بالبعث دون البعض فلماذا ؟ والتاريخ الاميسن
الذي نقل الينا رسالة عيسى هو التاريخ الاكثر امانة الذي نقل الينا
رسالة سيدنا محمد صلوات لله عليه وسلامه فلماذا يصدقون التاريخ
تارة ويكذبونه تارة أخرى ، وقد رايت أن أبرز بعض الجوانب
الضعيفة في تدينهم فضحا لهم وتشهيرا لمساوئهم وان ايمانهم بسيدنا
عيسى عليه الصلاة والسلام يثير الضحك والفكاهة ، فولادة عيسى
الخارقة واختفاؤهم الخارق اثار في انفسهم خيالا ما زال يتسع ويتسع
حتى سلخواه عن مصاف البشر ، وصارت هذه العقيدة ديناً رسمياً
للكنيسة في القرن الرابع للميلاد ، وكذلك كانت ولادة عيسى من غير
اب متار خلاف واسع بين اليهود الذين تطرفوا الى الجبهة السفلى
فزعموا انه لقيط وأن أمه بنى وبين المسيحيين اللذين تطرفوا الى
الجانب الآخر فزعموا أنه اله في صورة بشر ، لكن المسلمين توسلوا
فنفوا عن أمه الزنا وبذلك خالفوا اليهود كما نفوا عنه الألوهية وبذلك
خالفوا النصارى ، وخير الامور اوسطها وأتم الآراء اعدلها ، وبهذا
فسر بعضهم قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » أى وسطا في
غلو النصارى وتطويل اليهود ، وسطا في العمل بين طقوس اليهود
المرهقة وطقوس النصارى المجحفة ، وقد اعترف المسيحيون أن
عيسى قد اختلط به اللاهوت بالناسوت اختلاط الماء باللبن ، أو اللغز
بالبدن والنار بالحديد فهو عندهم اله أو جزء اله أو ابن اله ، وهم قبل
أن يبرئوا اليهود من دمه في السنوات الاخيرة فقط كانوا يعتقدون
ان اليهود اهانوه وضربوه وقتلوه وصلبوه ، ترى كيف يكون هذا
الاله المضروب المهان المعذب المقتول وهلا دافع عن نفسه ، ومن
كان يدبر أم السماوات والارض حين دفن ثلاثة أيام بزعمهم ومن ناب
عنه ، وهل الله فارقه حينما دفن أو صاحبه في قبره ، فان كان قد
فارقه فكيف ذلك بعد أن مازجه وان صاحبه فكيف دفن الله تحت
التراب والصليب الذي صلب فوقه عيسى بزعمهم لماذا يقدسونه وكان
الاجدر بهم أن يهينوه ويكسروه ، وما أجدر النصارى تبعاً لمنطقهم
أن يتخذوا موسى الها بدلا من عيسى لان عيسى اذا كان قد أحيى الموتى

الغرب ، بل كانوا أحيانا قليلة يلزمون المسلمين بتقيل أيديهم على عادة الحكام يومئذ ، فهل يوصف المسلمين بعد هذا بالتعصب وهل استطاع المسيحيون أو اليهود أن يجعلوا من المسلم مسؤولا كبيرا في مجتمع يهودي أو مسيحي ذلك هو الامر الذي لم يثبت في التاريخ أو على الأقل لم أطلع عليه ، هذا مع ما عرف من المسيحيين من روح اضطهادية لمن هو على غير دينهم ، فكم سالت من دماء بين الكاثوليك والبروتستانت ، صحيح أن المسلمين حاربهم ورفعوا السيف فوق أعناقهم ، لكن المسلمين حاربوا المسيحيين لا المسيحية ، وقاموا اليهود لا اليهودية فلم تفلق كنائسهم وبيعتهم ونهينا عن قتل رهبانهم وصبيانهم ونسائهم ولم يتمتعوا عن أداء طقوسهم الدينية بينما وهم قد أغلقوا مساجدنا وقتلوا علماءنا وأهانوا نساءنا ونكلوا بأطفالنا وشيوخنا وإذا كان الاسلام يعترف بدينهم فهو انما يعترف بأصول دينهم لا بما غيروا وحرفوا وهم دائما يغيرون ويحرقون لانهم أعطوا لرهبانهم سلطة روحية وعلمية بها اللهو عيسى وقدسوا الصليب وتجاوزوا عن سيئات الناس وغفروا ذنوبهم وبها أدانوا اليهود من دم عيسى ثم برؤوه منهم في السنوات الاخيرة ، وقد اضطرت أن أتحدث عنهم وعن تاريخهم وديانتهم لانهم لما يشسوا من شبابهم اتجهوا الى شبابنا وأطفالنا فانشأوا بين قومي كنائسهم ومكاتبهم وأخذوا يبتون دعايتهم ويفرون ضعفاءنا بالمال ومع ذلك فهل استطاعوا أن يكسبوا فردا أو أفرادا بقدر ما ينفقون من امكانيات ؟ ذلك مالا أضمن لقد فشلوا بينما كما فشلوا بين قومهم وهل اتجهوا الى العلماء والمنقذين يعرفون تاريخهم ومكرهم وأنا على استعداد لننشد معهم الحقيقة باحثين عنها ، مستعملين المنطق الخالص لا برازها فهل هم فاعلون ؟ فان لم يفعلوا دعوناهم الى ما دعاهم اليه معالي الوزير في خطبة الافتتاح ، واني لارفض بعد هذا كله أن يسمح الاسلام في هذا العصر بالذات بالتزوج من بناتهم ومصاهرتهن للأسباب التي قدمها اخوان لي وأخوات من قبل ، ولسبب آخر تاريخي ، فهل تعلمون - أيها الاصدقاء. أن بعض الأسباب التي ضاعت لنا بسببها وطننا في الاندلس هو التزوج بالإجنبيات هو اتجاه الحكام والأغنياء الى التزوج بالإسبانيات ، وهل تعلمون أن آخر عرش سقط في الاندلس كان من بعض أسبابه أن صاحب العرش متزوج بمسيحية ، واستمرضوا مع الدول المتوالية

الاهلية ، والعمل عنده هو الذى يبدل فى انتاج سلع انتاجية أو استهلاكية ، ذات منافع اقتصادية ، أى ذات قيمة استبدالية وغير هذا لا يسمى عنده عمل ، وأخذ الناس بهذا المبدأ فاستغنى بعضهم وانزلق عامة الناس نحو البؤس والفقر ، فبرز نظامان أولهما يرى العلاج فى القضاء على الرأسمالية وهم الاشتراكيون ، وثانيهما يرى أن البؤس والفقر يرجعان الى نظام الطبيعة وقانون الحياة وما كاز كذلك استمضى على الفلسفة علاجه ، وهؤلاء هم المتشائمون ومن كبرائهم مايسست الراهب الانجليزى الذى يرى أن تكاثر السكان يجرى وفق متوالية هندسية أى واحد اثنان أربعة ثمانية ستة عشرة ، بينما الانتاج الزراعى يجرى وفق متوالية حسابية واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ... الخ وهكذا ثم يقول فالحكمة تقتضى على أن تكون الولادة على متوالية حسابية لماذا ؟ ليقع التوازى بين انتاج الارض وانتاج البطن ، وزعم أن تكاثر السكان له مانعان هما : مانع قهرى هو الامراض والزلازل والابوثة ومانع اختياري وهو تحديد النسل ، وزعم أن العالم كالعائلة المملوءة بالآكلين ، فليس للمولود الجديد موضع فيها ، والحقيقة أن الاشتراكية تعنى بالجماعة وعلى الفرد أن يخضع للجماعة ولو ضحى بمصلحه وهى لا تحرم الا الملكية الفردية لموامل الانتاج بينما تحرم الشيوعية الملكية الفردية عموما وان وقع فى دستور بعض البلدان الشيوعية اباحة الملكيات كمنازل السكنى ، وقد زعم بعضهم أن الاشتراكية تهيب لكل بقدر انتاجه اما الشيوعية تهيب لكل قدر حاجته على أن الاشتراكية تختلف فى التفسير والتطبيق باختلاف الاحزاب والدول ، وقد ظهر كارل ماركس اخيرا وكان أبوه يهوديا ثم تنصر ونشر بياننا دعا فيه العمال الى الاتحاد والاعتماد على القوة والصف وتكوين دعائم الانتاج الفردى ثم جاء لينين فأمن بالمبادئ الماركسية وسماها شيوعية وألف كتابه **الدولة والثروة** لشرح برامجه وأهدافه ويتلخص مما ذكرنا أن هذه المبادئ تقوم على نظريات فلسفيه حول العمل والعمال والارض وزراعتها والآلة وانتاجها وغير ذلك من أسباب الحياة ورفاهيتها ، ونحن نرى أن قيام بعض هذه الحركات فى البلدان القاصية قد يكون له سبب معقول اذا كان رد فعل قوى لنظام الطبقات والاقطاع والتسخير الذى كان سائدا فى أوروبا •

أما المجتمع الاسلامى الحق فليس نظامه طبقيًا ولا اقطاعيًا على أن

والشركات وغيرها ، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : «أيضا
أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله» وقد
جعل القرآن الكريم الشخص الذي لا يحض على طعام المسكين من
المكذبين بالدين ، فما ضحك بالذي لا يطعمه ، فليس البر أن تصل
ونصوم وتحج فحسب ولكن البر كل البر من أطعم الجائعين وعلم
الجاهليين وهذب المنحرفين وأعان الماجزين .

وفي اعتقادي أن الجماهير الاسلامية الجائعة المتخلفة في حاجة
الى توفير العمل لها واسماها بالمال والغذاء والدواء أكثر من حاجتها
الى الموسعة والدعاء .

أما تحديد الملكية فللحكام أن يحدوها اذا رآوا حاجة ماسة اليها
كما فعل عمر فيما أظن ولهم ألا يحدوها اذا لم تدع الحاجة اليها كما
فعل غير عمر فهل يقتنع الشباب بهذا ، ويكتفى به عن الدعوة الى
الشيوعية او الرأسمالية التي أضاعتنا فلسطين ، فبين شيوعية ملحدة
ورأسمالية طاغية عاتية ضاعت فلسطين الحبيبة . وهل حلت
الرأسمالية في بلدها مشاكل الفقر والبطالة ، وهل حلت الشيوعية
في بلدها مشاكل التغذية والرفاهية ، أما التجربة الاساسية
للاشتراكية فقد نجحت وأعطت أكلها وانى لا تبين هذه الاشتراكية
المسلمة المطمئنة الناجحة في الاراضي الجزائرية التي مررت عليها
عبر القطار ، رأيت الاراضي المشجرة والحقول المستثمرة والمعامل
المستكنة والايادي الجزائرية التي ألقت البندقية لتحمل المعول ،
وودعت القنبلة لتدير الآلة ، انها معركتان اثنتان ، انتصرت الجزائر
الشقيقة في اولهما انتصارا باهرا وقد بدأت ملامح النصر تبدو عن
كتب في ثانيهما ، وليس الجهاد الثاني باقل ولا اهم من الجهاد الاول
لكن اليد التي عرفت كيف تحمل البندقية ستعرف أيضا كيف تدير
الآلة ، وانى لا تبين أيضا هذه الاشتراكية المسلمة في الجدية المتوفرة
والحركة الدائبة والفكرة المتوتبة النائرة ، وفي المساجد العامرة
وفي المرأة المحتشمة كل ذلك في هذا البلد الامين ، الذي إشرقت
شمسه وانجلت ظلمته وأسفر صبحه ، وان شاء الله أن ينطق نوره
في مكان من الامكنة ويتقلص ضل التعليم الاسلامي في جهة من الجهات
فقد شاء الله أيضا وله الحمد أن يشتمل نور الاسلام في هذه الارضي
الطيبة وينبسط دين الله في هذه المراجع .

فيقتنعون بها ويبشرون بها الناس ، وإذا كان آباؤكم أيها الشباب قد
قد تحملوا رسالتهم الفكرية . لما كانت الرسالة دما مرقا وسفرا
ممتعا ، وأمانا شاملا ، واسمحو لي في الأخير أيها الاخوان أن أصارحكم
ولا أنا فكم ، فاني قد تلمست في الجزائر جدية متدفقة وروحانية
ثابتة واشرافة قريبة ورغاية منتظرة ، وديانة متينة وعروبة أصلية
وثقافة أصيلة ومساجد عامرة وامرأة محتشمة فإذا بقي الامر هكذا
ونرجو أن يبقى فسوف تتبوا الجزائر زعامة الامة العربية والاسلامية
بعد بضع سنين .



بأقى الرقعة من الأرض، وسيطرة على الورق من الكتاب . الأسباب والآثار المعنوية لتلك الأحداث . الآثار المادية : الاطلال . . . الباقية . التدابير المتخذة أو النوى اتخاذها لايبرز تلك الآثار والمناظ عليها) .

(2) الدين والعلم (الكتب المنزلة - وخاصة منها القرآن - والعلم . مدى صحة ما يقال اليوم من اطراف مختلفة : الجاهل المشعوذ ، والدجال السياسى الذى يلعب بعقول الجماهير ويستغل الدين - أي دين كان - سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، والملحد عن اعتقاد ، أو تعقد ، أوجهل ، الذى يزعم ان الدين يناهى العلم ولم يعد يقبله العصر ... الى حد أن كثيرا من انصار المتعلمين يتباهون بمصاداة الدين حتى يقال فيهم انهم ... هل الدين دليل خير أم مخدر للفرد والمجتمع ؟ أم لا هذا ولا ذاك ؟ فسادا اذن ؟) .

(3) الى م تيسر فى العالم الاسرة : الى التيسرى أم العسوى ؟ (تيسر : تهيبا . تعد ، توجه ، يقصد بها ، يذهب بها الى ... والمراد : ما المصير الذى يهيبا ويراد للأسرة اليوم ... على ضوء ما نرى ، ونسمع ، ونقرأ ... هنا وهناك ... فى العالم بأسره ؟ هل هي نظام يجب الغاؤه فى أسرع الأجل ؟ أم يكفي تركه ليموت ... موته الأجل أو العاجل ، بأعماله على حاله ، ينخر السوس فى عظامه ؟ أم بالدفع به قصدا الى الموت بمختلف الوسائل والطرق ؟ أم يجب بذل جميع الجهود للحفاظ على هذا النظام ، بل وتعزيزه وتوطيد أركانه ؟ وكيف ذلك ؟) .

(4) نظرة جامعة على الجامعة (نشأة النظام الجامعى فى العالم وتطوره : مولد الجامعة فى تاريخ البشرية كنواة للنظام الجامعى بالمعنى العصرى ، دور الحضارة الاسلامية فى هذه النشأة وفى تطورها : تطور النظام على مر العصور . معنى وجدوى - أو عبث ومضار - الاصلاحات المتتالية ، وخاصة منها الجارية على هذا النظام فى العالم اليوم . آثاراها على الشباب والمجتمع) .

(5) ماضى ومضى هي الجزائر ، لا طفل أو طيف زائر ! (العلاقات بين الجزائر وبقية العالم قبل 1962 فى القديم والحديث ، وخاصة منذ بدء العصر الحديث : مع روما ، وقرطاجنة ، مع بلدان المغرب الاخرى ، والاندلس ، مع بقية البلاد الاسلامية ، مع الخلافة العثمانية ، مع افريقيا ، مع فرنسا ، واسبانيا ، وأوروبا بأكملها ، ومع الولايات المتحدة الامريكية منذ نشأتها ، ومع آسيا وباقي العالم ، فى مختلف المجالات . الاستمرارية فى تاريخها وشخصيتها رغم الدماء والاعداء) .